التناقض الوجداني

في الشخصيّة العربيّة المعاصِرة

* التناقض الوجداني في الشخصية العربية المعاصرة
* د . عبد المعطي سويد

* الطبعة الأولى 1992
* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
اللاذقية ص ب 1108 ـ هاتف 22339
سورية
* التنضيد والتنفيذ الفني : القسم الفني في دار الحوار

التناقض الوجداني

في الشخصيّة العربيّة المعاصِرَة

د. عبد المعطي سويد

تقديم :(*)

تنهض الحياة الانسانية على دعائم كثيرة أهمها : الاختلاف ، الائتلاف ، التوافق ، والتعارض فالأفراد يختلفون يأتلفون ، يتفقون ، ويتنابذون ، يتجاذبون ، ويتنافرون ، يحبون ويكرهون ، يتصالحون ويتخاصمون ، فتتحد فيهم المتعارضات الصارخة ، وتتفق أو تتوحد فيهم المتناقضات ، فيصبح كثيراً من الأفراد محبين مبغضين ، عاشقين وكارهين ، وتلك مواقف لا تخلو من حيرة ، وضبابية تدفع إلى الاضطراب والخلل والجنون والتمرد الأعمى أو الانتحار المفجع .

ولكن هل الحياة صافية ، بريئة كبراءة الجنة ، أو مصنوعة كبحيرات الشعراء الرومانسيين ، موطن الأحلام السعيدة ، والنعيم الأبدي؟

لا . . فالحياة مجعولة من المتناقضات ، ولعل هذه المتناقضات هي التي تدفع بالحياة إلى التقدم والتطور ، وكذلك تدفع بالإنسان منذ يقظته الأولى إلى تصور الوجود كله على أنه يقوم على التناقض .

فالحب الخالص منفيّ من الوجود ، كما أن عواطف العشق السامية أحلام محال

---

*) توضيح : التناقض الوجداني AMBIVALENCE OF EMOTION

تحدث «فرويد» FREUD ومدرسة التحليل النفسي عن التناقض الوجداني متناولاً جانبه الطفلي عند الانسان ، وسيأتي تفصيل هذه النقطة في ثنايا هذا البحث ، ولكننا تجاوزنا التحليل الفرويدي لهذه الظاهرة الطفلية ، ورأيناها تعيش في الشخصية الانسانية ، والعربية بشكل خاص في مستواها الطفلي أو في مراحل ما بعد الطفولة ، والتي تتوفر فيها العلاقة المعقدة ، والتعايش المضطرب بين النقيضين : الحب والكراهية في آن واحد ، حيث لا يخضع هذا الوضع لرقابة العقل ، كأن يكره أحدنا أمراً (ينتقده) ، ويقبله على علّاته ، لقد تناول الدكتور/ محمد عابد الجابري في كتابه (الخطاب العربي المعاصر) دار الطليعة ـ بيروت ط 3 ـ 1988 ص 123 ، هذه النقطة في بُعدها القومي ، ونحن نتفق معه فيها ، ونراها انعكاساً للجانب اللاعقلاني .

تحقيقها ، ولا خير في الحبّ المحض ، كما أن الكراهية المطلقة وضع لا يُعاش ولا تستقيم به الحياة العاطفية ، ولا العلاقات الانسانية ولا الروحية ، فيشوب الحبّ إذن بعض الكراهية والنفور ، ويتغلغل في باطن الكراهية شعور بالعطف والحنان والدفء في لحظات مباغتة ، والحب الأعمى يقود إلى الهاوية ، كما أن الحب العاقل الحكيم خاطىء منذ البداية ، ولا يحقق الوصال المطلوب .

يتخبّط الفكر بين الأخطاء العارمة عندما تتقاذفه الانفعالات الجوفاء ، ويرمي الهيّجان بصاحبه نحو جحيم الموت عندما لا يصاحبه وعي وانطلاقات محسوبة .

ومهما يكن من أمر فالتناقضات في الانسان مبعثُ نشاطٍ وحيويّة ، وداعية إلى التفكير الجيد في أحسن الأحوال ، وإلى تدمير الذات والمجتمع في أسوأها ، إنها (التناقضات) مصدر قلق وخصوبة ، تُسبغ على الحياة معناها ، ولعلها تدفع بالمبدعين إلى مواصلة الابداع ، ويسقط في مهاويها أولئك الذين أهملوا فعاليتها الفكرية أو العقلية .

يقول «زكريا ابراهيم» : إن التناقض من مشكلات الوجود الانساني ، بل من طبيعته ، وإن هذا الوجود متأرجح بين النا ، والهو ، وبين الأنت ، والأنا ، والآخر وبين الأنا والهي ، والأنت الخ . ولا تخلو كل التأرجحات من جانبها الميتافيزيقي العينيّ والجذّاب يقول : «إن الاضطراب الكامن في نسيج الوجود البشري ، إنما هو في الحقيقة مجرد تعبير داخلي عن ذلك النقص الأصلي الذي تنطق به طبيعتنا الميتافيزيقية نفسها ، أي الحاجة إلى (الآخر) ولعله الطرف النقيض ، بحيث يستحيل علينا تماماً أن نقول عن الانسان : هو ، هو ، وعبثاً يحاول المناطقة أن يطبقوا منطقهم الصوري ، على حياتنا النفسية (من خلال) مبدأ الهوية IDENTITÉ فإن في تناقض وجودنا الروحي ما يتحدى شتى القضايا المنطقية القائمة على التحليل وتحصيل الحاصل ، TAUTOLOGIE ومهما حاولنا أن نعرف الانسان ، أو نحدده ، أو أن نطبق عليه فعل الكينونة ÊTRE فإننا لابد من الاعتراف في نهاية الأمر بأن هذا الكائن الزماني المتقلب ، المتحول ، هو فريسة للصيرورة المستمرة التي تجعل منه ما ليس هو»[1] .

أما بالنسبة إلى الشخصية العربية ، قد يكون لتناقضها الوجداني خصوصية ، وهو ما ستظهره هذه الأوراق ، وقد يكون رد هذا التناقض الذي تعيشه هو الصراع الواعي ، أو غير الواعي بين أمجاد الماضي ، وآلام الحاضر ، أو الصراع بين الذات العربية ـ الاسلامية ، والآخر بين التراث والأصالة ، أو بين المثال والواقع والتوتر بينهما . . . الخ .

لقد ارتطمت هذه الشخصية منذ ظهور الاسلام بهذا التناقض ونَشَب الصراع مع الآخر (المشركون) ونشأت حركات التصدّع الديني ، سبقتها حروب الردة ، التي هي بمعنى ما تعبير عن تناقض وجداني بين : الإيمان والرجوع عنه ، ثم توالت الصراعات بين المِلَلْ والنِحَلْ والمذاهب والفِرَق المناوئة ، كان يؤججها هذا التناقض الكامن في الشخصية العربية ، فاضطربت هذه الشخصية ، وبدأت تتشكل (الافرازات) و(العُقد) وتلا ذلكَ الانحطاط الحضاري الشنيع ، توَّجه الاستعمار الغربي وانتهى بمعارك التنمية والتقدم واللحاق بركاب العصر .

كان موقف الشخصية هذه ، مُعاشا على مستوى الانفعال حيناً ، وعلى المستوى الدموي القاتل ، أو على مستوى الحوار الهادىء .

أما ما سوف نتناوله في هذا البحث هو : التناقض الوجداني في الشخصية العربية على مستوى الحياة السلوكية ـ والموقف الفكري ـ وعلى الصعيدين الفردي ـ الاجتماعي .

طبيعة البحث :

ليس القصد هنا عرض دراسة ميدانية للمشكلة ـ والتي تكون أجدى وأشدّ نفعاً من الناحية العلمية ، ولكن المسألة في هذا الاطار الميداني تحتاج إلى أكثر من باحث ودارس ، بحيث أنني غير قادر فردياً على القيام بهذه الدراسة المباشرة ، والأمر يقتصر هنا ، على وضع دراسة وصفية لهذه المشكلة المعاشة ، محاولين نظرياً : فَهْم الجانب

التناقضي الوجداني ومضاعفاته وتأثيره على مجمل الشخصية العربية ، والمشكلة في واقعها ، نفسية ـ اجتماعية ـ ثقافية تعود بدورها ، إلى أصول وأُطُر تشكّلت في داخلها ، سيشار إلى هذه الأطر (الخاصة والعامة المحلية ـ والعالمية) في حينه .

الشخصية .. البُعدان .. النفسي والاجتماعي :

للشخصية الانسانية أبعادٌ كثيرة منها ، النفسية ، والفردية ، والاجتماعية والوطنية والقومية ، والمحلية ، والعالمية ، والدينية ، والطائفية ، وهي تتلقى تأثيرات بيئية ، ووراثية وليس الغرض من هذا البحث الغوص في هذه المسائل الشائكة ، ولا التعمق في دراستها ، بقدر ما يهدف إلى الوقوف عند جانبين للشخصية : النفسي والاجتماعي ، فالشخصية (بمنظور علمي تخصصي موضوع تتقاسمه ، وتشترك في دراسته علوم مختلفة ، أهمها : علم النفس ، وعلم الاجتماع والطب النفسي (وغيرها من علوم إنسانية وطبيعية) .

إن علم النفس : يدرس الشخصية من ناحية تركيبها ، أو أبعادها الأساسية ونموها وتطورها ومحدداتها الوراثية والبيئية ، وطرق قياسها ، كل ذلك على أساس نظريات متعددة كثيراً ما تكون متباينة ، متصارعة ، ولكن الهدف العام هو : التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الفرد في موقف معين يمكن ضبطه ، والتحكم فيه .

ويهتم علم الاجتماع بدراسة الشخصية الانسانية من حيث أنها نتاج الحضارة أو ثقافة معينة تشمل على أنساق SYSTEMES أو أنظمة اجتماعية ، وتنظيمات كالزواج ، والأسرة والدين ، والنظام السياسي ،والقانوني ، وغيرها .

وغنيّ عن البيان أن علم الاجتماع كأحد فروع الانسانيات HUMANISTIES يهتم

في دراسته للشخصية بالمحددات البيئية الاجتماعية(*) مع عدم إنكار العوامل الوراثية بطبيعة الحال»[2] .

تعقّد الشخصية العربية :(**)

تنآى الشخصية العربية عن التعريف والتحديد المنطِقيَّيْن ، الجامِعَيْن ، المانِعينْ ، كما تنآى عن الدراسة العلمية الصارمة ، ولا تخضع للاختبارات ، أو التجارب بأدواتها الدقيقة والعادية ولا للبرامج المعلوماتية ، إنما هي نمط ، أو نسيجٌ معقّد ، شائك من الوجود ،وهي كغيرها من شخصيات الشعوب الأخرى ، نتاج تاريخها الطويل ونتاجُ ما تلقّته من آثار خارجية عالمية ولعل موقعها المكاني ـ الجغرافي قد زاد في تعقيد وتشكيل صورتها الضبابية .

أذكر أن أستاذاً جامعياً في (دمشق) في الستينيّات ، قال لنا في مَعرِض دراسته للفكر العربي ـ الاسلامي ـ مفنّداً أطروحة بعض المستشرقين الزاعمة قولاً : «أن الشخصية العربية الاسلامية ، بسيطة simple في جوهرها (2 مكرر) يسيرةُ الفهم والاستيعاب ، وربما أراد المستشرق من وراء مقالته ، والتي لم يقلها صراحة هو أن هذه الشخصية تقترب ببساطتها فكراً ، ونفساً ، وروحاً وسلوكاً ، من الشخصية البدائية ، PRIMITIVE ولا تخلو مقالة المستشرق من سذاجة وسطحية(***) ، ذلك أن الشخصية

---

*) سيتوسّع هذا البحث في مفهوم البيئة الاجتماعية ليشمل البيئة المحلية المحيطة بالشخصية والبيئة العالمية ، أو الشروط الذاتية ،والموضوعية ـ انظر خاتمة هذا البحث .

)) كتب «السيد يسين» كتاباً في (الشخصية العربية) وهو كتاب قيّم ، ننصح بالاطلاع عليه ، ولكنه لا يمسّ موضوعنا ، طبع دار التنوير ـ بيروت 1981م .

))*) قد يعترض علينا البعض في سردنا لهذه الحكاية من جعبة الذاكرة بأنه ليس من الاسلوب العلمي ، لأن الكتابة العلمية تحتاج كل كلمة فيها إلى توثيق ، ونحن نأخذ باعتبارنا هذه النقطة ، لكننا نضيف بأننا نتناول كلمة توثيق ، أو وثيقة بمعناها الواسع التي تشمل أيضاً توثيق الكلام الشفوي واعتباره وثيقة شفوية ، يُستشهد بها .

العربية تمتد في بعض قطاعاتها (بعد أن استعربت دول المشرق والمغرب) عُمقاً في الماضي السحيق وتشكيلاته ، وتأثيراته على هذه الشخصية إلى سبعةِ قرون قبل الميلاد ، وقد دخلت إذن في تكوينها العام عناصر تشابكت جميعها لتضع أمامنا هذا النمط من الوجود العربي ـ الاسلامي ، ولعل أهم هذه المقومات التي أثرت هي :

ا ـ شعوب منطقة البحر المتوسط :

1 ـ الاعرابيات ، (العنصر البدوي) والساميات والسوريات والآشوريات والكنعانيات والعراقيات والمصريات والأفريقيات وما حملته من تقاليد اجتماعية ، أسرية ، وصفات وأمزجة ، وأنماط فكر ، وعاطفة ووجدان .

2 ـ الديانات السماوية : (اليهودية ـ المسيحيّة ـ الاسلام) .

3 ـ الثقافات الأجنبية : فارس ـ الهند ، اليونان (العصور الوسطى) .

4 ـ الشعوب التي عَبَرتْ المنطقة : العثمانيون ، المماليك ، المغول ، التتار ، الغرب (الصليبيون) .

5 ـ الغرب الأوروبي والأمريكي : العصر الحديث والمعاصر دخوله كعنصر مؤثر في تشكيل الشخصية العربية بالاضافة لايديولوجيات العصر .

ب ـ من الناحية الجغرافية (المكان) :

تتقاسم الشخصية العربية أمكنة جغرافية مختلفة من حيث البيئة (الجبال ، الأنهار المحيطات) ، والأرض وطبيعتها ـ جَدْبا وخصوبة ، المُناخ ، ومايتبع هذا الواقع من نمط حياة مختلف : النمط الزراعي ، والبدوي ، والريفي ، والمدني ، والتجاري ، والحرفي .

جـ ـ الناحية الشكليّة أو السحنة أو المورفولوجية : **MORPHOLOGIE**

هناك السحنة الشمال أفريقية ، والمصرية ، والسودانية ، والعراقية ، والشامية ، وأبناء الجزيرة العربية[3] وهناك الزيّ وطريقة اللباس ، والخ . . وطريقة الحفلات ،

والطقوس المحلية ، إذن لا تُفهم الشخصية العربية بمعزل عن هذه المقوّمات أو الأُطُر ، أو المكوّنات القديمة والحديثة ، إذ ماذا يفسّر لنا مثلاً عندما نقرأ في زاوية (حوادث وقضايا) في الصحافة عن حادثة أَخْذ بالثأر(*) في إحدى قرى الريف العربي ، أو تفضيل الزواج بابن العم أو ابنة العم .

كعرف (قانون) ثابت لا تخرج عنه كثير من القبائل العربية المعاصرة وأنها وقائع لا تزال تحدث في أيامنا هذه؟ كذلك كيف نفهم الصراعات القبلية وأساليب السلطة القَبَليّة ، والعشائرية والمشكلات الطائفية في عصرنا إذا لم نرد هذه المسائل إلى الارث القديم ، والأصول الأولى التي ورثتها؟ إنها تظهر في عصرنا الحديث بين آونة وأخرى ، وتصدم المطلع في ظنه بأن هذا الإرث القديم قد انقضى واندثر ، إلا أنه يدرك أن الارث يعيش في اللا شعور الجمعي العربي ويصعد إلى مستوى الشعور والوعي ضارباً عَرْض الحائط بكل مكتسبات العصر من تفكير ، وروح علمية ووعي معاصر ، فضلاً عن توفّر مكاتب أنيقة وألبسة عصرية ، وتظاهر بالخطب والمقالات والانشاء الأدبي .

(*)انظر ما كتبته جريدة (الخليج) حول حوادث ثأريّة بتاريخ 91/6/19 ، 91/9/16 ، وجريدة (البيان) 91/9/25 .

الخلفيّة التراثية من خلال بعض النصوص الاتباعية (الكلاسيكية) :(*)

١ - أشار القدماء إلى جانب التناقض الوجداني عند العرب ، فقال «أبو حيان التوحيدي» :

«ما أعجب أمرُ العرب ، تأمر بالحِلم مرة ، والصبر والكظم ، وتحثّ بعد ذلك على الانتصاف والأخذ بالثأر ، وتذمّ السفه ، وقمع العدوّ ، وهكذا شأنها في جميع الأخلاق أعني أنها حضت على القناعة والصبر والرضا بالميسور ، وربما خالفت هذا فأخذت تذكر أن ذلك فُسالة ونُقصان همّة ، ولين عريكة ومهانة نفس ، وكذلك أيضاً تحثّ على البسالة والاقدام ، والانتصار والحمية والجسارة وربما عدلت إلى اضداد هذه الأخلاق والسجايا والضرائب والأحوال في أوقات يحسن فيها بعضها ويقبح بعضها ويقدر صاحبا في بعضها ، ويُلام في بعضها ، ذلك لأن الطبائع مختلفة والغرائز متعادية[4] .

كُتب هذا النصّ في القرن الرابع الهجري ، ولكنه يقصد النظر إلى العرب في بداوتهم وهو ما يهمنا من حيث اتباعنا التسلسل التاريخي ، ويشير إذن إلى التناقض الذي كان يتّصف به وجدانهم العام لذلك فمضمون النص يسوغ ما نريده حول مرحلة ما قبل الاسلام .

2 - الشعر الوجداني الجاهلي ، تعايُش المديح والهجاء في وجدان الشاعر :

حفل هذا الشعر بقصائد وجدانية يسودها التناقض ، ونلمح أولى ملامحها في

*) سيلاحظ القارىء بان الباحث سيعمد إلى سرد فقرات كاملة ، ونصوص لا تخلو من إطالة لأنها ستكون شواهد تثري ، وتدعم أطروحة الباحث ، ولعل غاية هذا البحث هي التأليف بين النصوص ذات الدلالة المبيّنة ، والتي تشكل في مجملها الموضوع ، والكاتب لا يطمح إلى أكثر من تحقيق هذا الهدف .

شعر الصعاليك «انظر شعر عروة بن الورد» ثم باب المديح والهجاء لدى شعراء ما بعد الصعاليك ،ونسوق مثالاً نمطياً ، أعني الشاعر «الحطيئة» وإن ما يعنينا لدى هذا الشاعر هو : تعايش النقيضين في شعره ، أيّ المديح والهجاء إزاء الموضوع نفسه ، فهو أي الشاعر يمدح عندما يرضى ، ويذمّ عندما يغضب من الشخص نفسه : «فاحترف الحطيئة الهجاء ، واتخذه تجارة ومعاشاً ، ولم ير في الدنيا رجلاً حقيقياً بحبّه ، فهو يهجوهم جميعاً حتى يحسنوا إليه ، فيكفّ ، فإذا عظم عطاء الكريم وأغرقه فيضه مدَحه في شعره ، يجود ويسفّ بمقدار ما قُدم له من أجر إن قلّ العطاء : قال مثل شعره في «عينية بن النهاس العجلي» وهو في وجوه (بكر بن وائل) .

سئلتَ فلم تبخل ولم تعط قائلاً فسيّان لا ذمٌّ عليك ولا حمدُ
وأنتَ امرؤ لا الجود منك سجية فتعطي وقد يعدى على النائل الوجد[5]

في الشطر الثاني من البيت الأول : لا ذم ، ولا حمد ، يدل على توارد النقيضين في فكر الشاعر ولكن على المستوى الوجداني أو الشعري الانفعالي المحض .

يقول محمد ، محمد حسين في كتابه (الهجاء والهجاؤون) :

«كان الحطيئة يظهر الخضوع إذا لم يكن منه بد ودخل الاسلام فلما مات النبي وارتدت العرب جهر بكفره وراح يحرض الناس على الامتناع عن الزكاة ويذم القبائل ويدعو الناس للخروج على أبي بكر»[6] .

ويقول «إيليا حاوي» في هذا الصدد : «وكان الحطيئة متقلّب الولاء يمتدح من يغدق عليه ، ويهجو من يمنع عنه أو يمتنع عليه ، وكان يمدح ويهجو وفقاً لما يدرّه عليه مدحه وهجاؤه»[7] .

3 ـ القرآن الكريم ، الثنائية ، الدين والدنيا :

لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذِكْر الثنائيات في مستوياتها : الميتافيزيقية (الغيبية) أو الانسانية ، أو الكونية الطبيعية ، وبعبارة ثانية ، لقد تحدث القرآن عن : عالم الغيب/ عالم الشهادة ، الوحدانية/ الاشراك ، الكفر/ الايمان ، الجنة/ النار ، الدنيا/ الآخرة ، الجحيم/ النعيم ، التوبة/ الغفران ، الخير/ الشر

الظلمات/ النور ، الحياة/ الموت ، الحق/ الباطل ، الحلال/ الحرام ، الهدى الضلال ، الحرب/ السلم ، . . الخ وليس غرض البحث توسيع دائرة هذه الازدواجية التي شكلت مهاداً أو أرضيّة للتناقض الوجداني ، بل يكفي أن نسوق مثالاً مؤشراً إلى الموضوع ، أعني بين : الاقدام والاحجام على الحياة .

أ ـ الاحجام عن الحياة :

ذكر القرأن ما يلي :

«كل نفسٍ ذائقة الموت» (دعوة للتفكير بالموت) .

«وإنما توفون أجوركم يوم القيامة» (نفي الزمن) .

«فمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة ، فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (دعوة للحذر من مباهج الحياة) ـ آل عمران الآية 85

«اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأحوال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج ، فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (الحياة وهم ـ وحُطام ـ ومتاع الغرور» (سورة الحديد الآية 20) .

ب ـ الاقبال على الحياة :

«قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق كل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون» «لا يجوز تحريم زينة الحياة الدنيا» (الاعراف الآية 32 ، 33) .

«وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا»
(حق الانسان في استثمار الحياة لصالحه)

القصص الآية 77

وكذلك في الحديث الشريف روى عن النبي محمد قوله :

«البس ما شئت ، ما اخطأك سرف ، ومخيلة ، إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» .

لم يغب عن المؤلفين المسلمين قديماً وحديثاً تناول هذه الموضوعات شرحاً وتفسيراً وتعليقاً ، وتسويغاً ، فهم ينتهون جميعاً إلى أن القرآن الكريم يريد من ذكر هذه الثنائيات القول أن الحياة لا تقوم على قاعدة واحدة ، بل يذهب إلى أبعد من هذا أي أن القرآن يرمي من وراء هذه الثنائيات إلى خلق توازن في حياة الانسان أو توازن في الوجود كله ، وهذه هي حكمة الله في خلقه ويأمر القرآن بأن لا يذهب الانسان متطرّفاً نحو أي طرف على حساب الآخر ولقد هداه إلى (النجدين) وألهمه الفجور والتقوى ، والتوبة والمعصية ، والانسان عليه أن يتجاوز التناقضات بين هذه الثنائيات على كافة المستويات ليصل به إلى الايمان الحقيقي ، من خلال التوازن المنشود .

وتتجسد فكرة التوازن هذه في كتب المؤلفين الاسلاميين المحدثين ، ونظرة سريعة إلى عيّنة صغيرة يمثلها كتاب «بنت الشاطىء» (الشخصية الاسلامية) حيث قرأت الكاتبة القرآن الكريم قراءة ثنائية ، يتضح الأمر من عناوين فصول كتابها المذكور فلقد جاء فيه ما يلي :

(الاسلام/ الايمان (هل ترى المؤلفة ازدواجية بينهما توحي بتناقض؟) البشر الملائكة/ المادية/ الروحية ، العبادة/ العمل ، (هل ترى الكاتبة ازدواجية بين العبادة والعمل توحي بتناقض؟) الدين/ العقل ، المحافظة/ التجديد ، الفردية/ الجماعية .

ليس قصد هذه الكاتبة الاسلامية تبيان تناقض بين هذه المزدوجات بقدر ما تريد القول أن لا تعارض بينها في نظر الاسلام ، بل العكس هو الصحيح ، أي أن الاسلام يوجد توازناً كاملاً بين هذه المطالب المزدوجة .[8]

إذا قبلنا من الوجهة النظرية الصرفة أن هناك ازدواجية ، ولكن لا تناقض بينها كما تريد أن تحدثنا (بنت الشاطىء ـ عائشة عبد الرحمن) وغيرها من الكتّاب المسلمين ، نتساءل من الناحية الواقعية الصرفة ، أو العملية ، أو الحياتية هل تعيش شخصية المسلم المعاصرة هذا التوازن؟ المؤلفون المسلمون قبل غيرهم

يعرفون أن الجواب بالنفي .

4 ـ الشعر المخضرم :

يستمر تيار التعبير عن التناقض الوجداني في شعر المخضرمين ، أولئك الذين عاشوا بين عصرين وشهدوا عهدين : الجاهلية والإسلام(*) وحملوا آثار الجاهلية ، والاسلام وبعضهم تغيرت قناعاته ومال إلى العقيدة الجديدة وأسلم واتخذ الاسلام ديناً ، ومنهم من ظل متأرجحاً ، متقلّباً ، ومن ثم انقلب على عقبيه عندما توفي النبي ، وتجسد هذا الرجوع عن الايمان في حروب الردة ، فالمرتدون بغضّ النظر عن أسبابهم الاقتصادية هم في اهتزاز ايمانهم وارتدادهم خير تعبير عن الموقف التناقضي الوجداني المتوتر ، فلقد آمنوا (ظاهراً) ثم كفروا ، ورجعوا عن إيمانهم حين سنحت لهم الفرصة .

5 ـ العصر العاطفي (العَصَبيّ) الأموي ، (الانفعالي) :

استمر كذلك الاتجاه التناقضي الوجداني يعبّر عن نفسه على ألسنة الشعراء ، في مديحهم وهجائهم ، ولم يكن يعني هذا أصحاب هذا الاتجاه اتخاذ موقف ، بقدر ما كان يعنيه التعبير عن النزوة والانفعال الآنيّ المباشر ، أو عن الانفعالات المتناقضة إزاء واقع متناقض في ذاته بين العَصبيّة القَبَليّة العربية ، وبين الأعاجم والقبائل الأخرى المشكوك بعروبتها ، ولقد ظهرت مطارحات شعرية في هذا العصر ، في قصائد (نقائض) الشاعرين (جرير) و(الفرزدق) وكذلك لدى الشاعر (الأخطل)(**) إذ يستمر «التكسّب

---

*) ألا يدلّ حديث المسلمين عن هذين العهدين منذ ظهور الاسلام إلى يومنا هذا على ثنائية وتناقض صارخ بين الجاهلية/ الاسلام؟

**) لقد عَمِلت الصراعات القبليّة على تأجيج هذا التناقض الوجداني حيث وصل إلى أعلى درجة في تعبيره الكلامي ، والفعلي في الهجاء والمدح وجَدَل النزوات ، أو التبجيل الذاتيّ وذم الآخر .

بالمديح والنقمة بالذم ، إزاء نفس شخص الممدوح فهذا الشخص هو ممدوح ، مهجوٌّ في آن واحد»[9] .

6 ـ مرحلة ما بعد 132هـ أو ما يسمى بالعصر العباسي :

ظل الشعر ديوان العرب ، وظل الاتجاه الوجداني يسوده ، ولكن الاحتكاك بالثقافات الأجنبية من جهة ، ونشوء وتطور علوم الدين من ، فقه وتفسير وسيرة ولغة ونحو وظهور نمط جديد من التفكير الاسلامي الذي وقف ضد انحرافات واتجاهات المِلَلْ والنِحَلْ والفِرق من جهة ثانية ، جعل الشعر يحتل كفة ميزانٍ غير طاغية ، كما كان الحال في العصر الأموي .

ولا نعدم وجود شعراء كثيرين كانوا أصدق تعبير عن التناقض الوجداني في هذا العصر نفسه ، ولا بأس أن نقف عند عَلَم من أعلام شعر هذا العصر أعني «أبو العلاء المعري» :

يقول «إيليا حاوي» :

(قد ينتقل الشاعر ذاته تحت وطأة الانفعال من يقين نفسي إلى يقين آخر ينقضه ويخالفه ، متحولاً من الظلمة إلى النور ، ومن أعماق اليأس إلى ذروة الأمل ، ومن الذلّ إلى الزهو والاعتداد ، وذلك أن الشعر تعبير عن اللحظة النفسية ، بحيث تخضع قوى النفس جميعها لمنطقها ، فأبو العلاء ، وقع حيناً في حالةٍ من الشؤم والبؤس وأحسّ بقسوة القدر ، وظلم الحياة ، فتجهمت نفسه ، وأربد عالمه واعتراه شعور بالضآلة وقلّة القدر فنقم على نفسه وعلى الحياة (ذمّ النفس والحياة) وعبّر عن هذا الانفعال (الضاغط) الذي استبد به فقال .

خَسِسْتِ يا أمّنا الأرض وأفّ لنا — بنو الخسيسة أوباش أخساء

لو كان كل بني حوّاء يشبهني — فبئس من ولدت للناس حواء

فالشاعر يتخاذل خلال هذه الأبيات ، ويشعر بالهوان ، حتى كأنه لعنة من لعنات القَدَر وهو لا يكتفي بذلك ، بل يبعثه من نفسه إلى الحياة ويرى أنها تلد الخزي والعار والعاهة ، لكنه لا يعدم أن يتمالك روعه في لحظة نفسية أخرى فتنقشع أساريره ، وتشتد عزيمته ، ويثق بنفسه وثوقاً شديداً ، فلا يشعر بالتكافؤ مع سائر الناس وحسب ، بل يتفوق عليهم (يمدح ، ويطري ذاته) ويخيل إليه أنه أعظم الناس جميعاً .

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل	عفافٌ ، وإقدام ، وعزم ، ونائلُ
تعد ذنوبي عند قوم كثيرة	ولا ذنب لي إلا العُلا والفضائلُ
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم	بأخطاء شمس ضوءها متكامل
وإني وإن كنت الأخيرَ زمانه	لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

يتساءل الأستاذ «حاوي» قائلاً «فأين ما تشهده في هذه الأبيات من عتوّ وشموخ» وتشاوف مما شهدناه في الأبيات السابقة من بؤس وانسحاق ، لقد نزع من النقيض إلى النقيض بفضيلة الانفعال النفسي الخالق ، المرتبط بيقين اللحظة التي يعانيها الشاعر ، ولا شك أن هذين القولين ينطويان على مستحيل لا يسيغه المنطق ، أو يتعذر أن يكون المرء في غاية الذل والدناءة ، وذروة الرفعة والتفوق في الآن ذاته ، إلا أن ما يبدو مختلفاً ، متناقضا ، هو متآلف متوحد في إطار النفس التي تخضع لمنطق الشعور (أي الوجدان)[٢٥] كان انفعال الشاعر يتقلّب ما بين النقيضين المدح/ الهجاء للذات ، وكان انفعاله الشعري بين الاختلاف العقلي ، أي التناقض الذي لا يسوغه العقل ، والائتلاف الوجداني .

القسم الثاني

مقدمة : التناقض الوجداني في الشخصية العربية المعاصرة :

ظل المسلمون يقرأون القرآن الكريم بما يحتوي عليه من مزدوجات ، أشرنا إليها في بداية هذا البحث ، ورافق هذا الاتجاه الازدواجي ظهور تيار شعري وشعبي عام مرّ إبّان الحضارة العربية ـ الاسلامية ، أعني : الانتقال من مرحلة الإلحاد والمجون والتهالك على الحياة الدنيا ، ومتعها ومباهجها ، والتعلق بها إلى مرحلة الإيمان الشديد ، والزهد والورع والتوبة(*) وطلب الغفران ، بعد أن آذنت شمس الحضارة بالمغيب وتدهورت حالة المسلمين ، وران على قلوبهم الظلمة الطويلة ، وبدأت عصور الانحطاط ، وغمرتها الازدواجية الوجدانية الزائفة أو التناقضات الوجدانية اللفظية ، ونودّ أن نقفز إلى المرحلة الحديثة والمعاصرة ، أي تحديداً منذ العشرينات من هذا القرن إلى يومنا هذا ، وسنعطي أمثلة ونماذج (عينات) نعتبرها أدلة على استمرارية التناقض الوجداني في الشخصية العربية .(**)

ظهرت في آفاق الحياة العربية ـ الاسلامية شخصيات مثقفة ، أخذت بدورها من معين التراث العربي ـ الاسلامي ، قديمه وحديثه ، وتغذّت من معين ثقافة عصر النهضة العربية في منتصف القرن التاسع عشر يخالط هذه الثقافة التي أخذت منها ثقافة أجنبية ، يضاف إلى هذا ما وقفت عليه هذه الشخصيات بنفسها على الثقافة الأجنبية سواء من أصولها أو ما تُرجم عنها إلى العربية ، ولقد مارست هذه الشخصيات تأثيرها على أجيال عربية ـ إسلامية لاحقة ، وتجلّت إبداعاتها في ثقافتنا وحياتنا ، ولكنها رغم كل هذا فقد

*) يقوم مفهوم التوبة في الاسلام وفي الدين عموماً على افتراض وجود التناقض الوجداني في الانسان ، إذ أن الذي يتوب إلى الله ينتقل (أو يَرجِع) من موقف المعصية والكفر والجحود والمجون ، إلى التُقى والورع والتوبة النصوحى .

**) سيقف القارىء في الصفحات التالية عند معالجة التناقض الوجداني في الشخصية العربية في جانبها المصري ، ومع الأسف لم تتوفر لدينا المراجع العلمية لدراسة هذا التناقض في الشخصية المغربية أو الشامية أو الخليجية ، والعراقية . . الخ ، لقد كان المصريون سباقين لمعالجة الموضوع ووضعوا وجهات نظر مختلفة ، تختلف عن وجهة نظر الباحث هنا .

ظلت وليدة البيئة العربية بكل تناقضاتها ، فكراً وحياة وعاشت هذه التناقضات الوجدانية وانعكست في أعمالها الثقافية ، دون أن ترتقي إلى مستوى العقلانية ، وقد أبدت هذه الشخصيات مواقف تناقضية وجدانية تعتبر بحق مؤشرات واضحة وفاضحة في الوقت نفسه لغياب الوعي بما يُقال حيناً ، وما يناقضه على طرف آخر تماماً في وقت لاحق غاضّة (الشخصيات) النظر عن الأخذ بفكرة ما أو بمبدأ ، أو بعقيدة ، والالتزام بها وتطويرها عوضاً عن (الرجوع والعودة) أو التوبة والغفران .

1 ـ عباس محمود العقاد : مدح الملك فاروق / ثورة 23 يوليو :

يقول أحد الباحثين أن «العقاد لم يكن يتوخى في كتاباته الصحفية إلا الحقائق التي تخدم الجهة السياسية التي يؤيدها ، فقد كان يتخذ مواقفه الصحفية بما تمليه عليه الملابسات الحزبية ، أو الذاتية ، بغض النظر عن المبدأ أو المصلحة العامة ، فإذا تغيرت هذه الملابسات تغير موقفه بالتالي .

يقول «العقاد» : فالكاتب السياسي مهما يكن شأنه ، ومهما يكن الشعب الذي يكتب فيه فليس في وسعه أن يؤدي اليمين القانونية التي يؤديها الشهود في المحاكم قبل الافضاء إلى القضاة بما يعلمون ، وهي أن يقول الحق ، ويقول كل الحق ولا يقول إلا الحق[11] .

فالعقاد يظهر في هذين الموقفين كالتالي :

موقف «أ» :

يقول «العقاد» في الملك «فاروق» ما يلي : «إنه محور السياسة ، وهو قبلة الأنظار ، وهو المرجع الذي يناط به الحاضر والمستقبل[12] وفي عهد ميلاد الملك فاروق (1948) كتب العقاد «ومن يُمن طالعه ومآثر سعيه وإقدامه وسداد توفيقه وحسن قيادته للعاملين برعايته أن الأعوام التي سعدت بها مصر بحكمه أعظم أثراً وأوفر تقدّماً من أن تضارعها فترة مثلها في تاريخنا الحديث[13] . »

موقف «ب» :

انقلب العقاد فجأة بعد 23 يوليو 1952 ليكيل الذمّ للملك «فاروق» دون مقدّمات تبرّر مثل هذا التغير السريع في اتجاهه فكتب عن الملك فاروق «لكنه غلب التاريخ جهلاً وظلماً فغلبه التاريخ عدلاً وعلماً ، وخرجت مصر من المحنة مثلاً للكرامة وقد أرادها مثلاً للهوان .[14] »

2 ـ الشيخ حسن الهضيبي ، الموقف الجماهيري للشيخ/ موقفه إزاء الملك :

يقول طارق البشري : «بينما كانت الجماهير تهتف في الشوارع ضد الملك ، خَرَج «الشيخ الهضيبي» من إحدى مقابلاته مع الملك يقول : (كانت زيارة نبيلة لملك نبيل)[15] .

3 ـ الشاعر أحمد شوقي بين ترضّي الحاكم/ تملق الجماهير :

ويقول الباحث المذكور أعلاه : «اتهم شوقي بأنه شاعر بلا شعور ، وأنه ناظم متقن الصنعة ، ولكنه لا يتلقى إلهاماً من نفسه ،وإنما يتلقاه من مقتضيات المصلحة ، فهو بين ترضّي الحاكم وتملق الجماهير ، والجري وراء أسباب الشهرة»[16] .

4 ـ الشاعر حافظ ابراهيم ، شاعر الوطنية والشعب والنيل/ مادح للاستعمار :

موقف «أ» :

يقول صاحب مقال (المثقفون العرب والتنمية) «كان جلاء الانكليز عن مصر في وجدان حافظ يمثل يوم القيامة ، وهو أسوأ ما يقوله شاعر لقومه ، فإذا كان هذا الشاعر

موصوفاً بأنه شاعر الوطنية والنيل ، كانت المصيبة أعظم ، وكيف يجوز أن يسمى شاعر الوطنية من يؤبن موت كبار المحتلين ، ويستقبل أحبارهم بالتحيّة والتكريم عند السفر والعودة» .

موقف «ب» :

وجاء في المقال المذكور أعلاه : «يقول الشاعر عن الانكليز ، وأكبر ظني أن يوم جلائهم ويوم نشور الخلق مقترنان ويستقبل حافظ المعتمد البريطاني السير «مكمهون» يناير 1945 بقصيدة يقول فيها :

وعدلتم فملكتم الد . . . . .نيا وفي العدل الكفاية . . .[17]

5 ـ طه حسين بداية التفكير العقلاني والشكّ في التراث / كتابة الاسلاميات :

موقف «أ» :

في عام (1927) صدر لطه حسين كتاب بعنوان (في الشعر الجاهلي) يقول فيه منطلقاً من شك في هويّة الشعر الجاهلي : «إن الكثرة المطلقة مما نسميه بالشعر الجاهلي ، ليس في الجاهلية في شيء[*] ولقي هجوماً شديداً من عامة العلماء ورجال الدين ، وصدر حكم بشأن منع تداول الكتاب وتحريم بيعه ، وأعفي وزير المعارف من منصبه ، لأن نظرية طه حسين أرادت الذهاب إلى أبعد من مقالة هوية ونحل الشعر الجاهلي .

انظر ، طه حسين ، في الأدب الجاهلي ط4 ، ص 71 ، 72 ، دار المعارف بمصر ، وكذلك المناقشات حول الموضوع في : د . ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط4 ص 380 .

موقف «ب» :

عدل «طه حسين» عن موقفه ، وأعاد نشر كتابه بعنوان (في الأدب الجاهلي) ولاذ بالصمت ، ولم يتابع نظرته للشعر الجاهلي ، وللأدب العربي ، ولم يطوّر هذه النظرة ، وانصرف إلى النقد الأدبي ، وكتابة مؤلفاته في الاسلاميات ، منطلقاً من نظرة اعتقادية .(*)

6 ـ نجيب محفوظ ، إدانة (أولاد حارتنا دينياً) / الخضوع في النهاية إلى مشيئة الله :

موقف «أ» :

تحت عنوان (قضية) نقلت جريدة (الخليج) 1989/4/20 ، 1991/6/24 ، أنه حين صدور رواية نجيب محفوظ 1959 تمّت مصادرة الرواية ، ومنع تداولها ، بناء على تقرير وضعه أئمه ثلاثة من المسلمين وهم : «الشيخ محمد الغزالي» ، والشيخ محمد أبو زهرة ، والشيخ «أحمد الشرباصي» وخلصوا من إعداد التقرير إلى القول بأن : «رواية أولاد حارتنا) تضمن أن فيها مساساً بالدين والألوهية ونوّهوا إلى ضرورة حجبها ومصادرتها وقد حدث ذلك بالفعل» .

وانتقل الأمر من مجرد الإدانة والمنع إلى الاتهام بالكفر والعصيان ، وقد أُهدر دمّ الروائي انظر المصدر المذكور 1989/2/27 .

موقف «ب» :

جاء في جريدة (الخليج) أيضاً في 1991/10/12 ما يلي :

قال الأديب المصري نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل للآداب أنه سينشر خواطره التي كان يكتبها في الأيام الأخيرة بعد عودته إلى القاهرة من لندن التي سيتوجه

---

*) خير مثال على التارجح بين موقفين كتابه الذي لا يخلو من معنى ، أقصد : (بينَ بَينْ) .

إليها يوم السبت وأضاف نجيب محفوظ أنه لا توجد الان قصة جديدة ينوي كتابتها حيث أنه يشكو من ضعف في السمع والعينين ، واستطرد قائلاً : «وهو ما يعني بحثنا هنا) » ، نحن في النهاية خاضعون لمشيئة الله ودعا لـ الله أن يمكنه من أن يقضي خارج مصر أقصر مدة ممكنة» .

نحن إذن أمام موقفين متناقضين : الموقف اللاايماني في الرواية ، والموقف الايماني بالقَدَر الإلهي على الصعيد الشخصي .

يقول «غالي شكري» في (المنتمى ـ دراسة في أدب نجيب محفوظ ، ط4 ، دار الآداب، 1988) إن الدين والعلم هما المحور الرئيسي لرواية أولاد حارتنا «لقد أراد محفوظ من الناحية النظرية أن يقدم الدين في مقابل العلم» م . مذكور ص 240 ، 252 .

يقول الروائي ، «وحجرتي الخلفية علمتني أن لا أؤمن بشيء إلاّ إذا رأيته بعيني وجربته بيدي» (انظر ، غالي شكري ، ص 256) .

وربما ينحو «نجيب محفوظ» حول هذه النقطة نحو مواقف كثير من علماء الغرب الذين يفرّقون بين العلم ، والاعتقاد الديني ويرى أن مشكلة الله لا تدخل في نطاق العلم" ولكن محفوظ يؤكد أمراً أبعد من هذا حول وجود الله ، (انظر غالي شكري المصدر المذكور ص 260") .

وكذلك «يربط الروائي ، كما يرى «شكري» المسألة الميتافيزيقية بالانتماء الاجتماعي ، والاسلام كان تعبيراً ثورياً عن رحلته التاريخية» م .ب ص 254 .

جاء في رواية محفوظ المذكورة ؛ "يقول قاسم (وهو رمز لشخصية النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم "عن "الجبلاوي" : "طعن في السن ، وخفّت خشيته ، كهذه الشمس المائلة نحو الأفق" (انظر أولاد حارتنا ، طبع دار الآداب ـ بيروت ـ 1986 ، ص 255) ويربط القضية الميتافيزيقية بالقضية الاجتماعية حين يتابع قـولـه راقبوا ناظركم فإن خانه فاعزلوه" (المصدر المذكور ، الصفحة نفسها) .

ويقول الناقد (غالي شكري) أن الروائي (تورّط) عندما اتخذ الحركات الدينية الكبرى السماوية ، إطاراً للبناء الروائي" (م . مذكور . ص 251 ، 251 .)

وينتهي «غالي شكري» إلى القول أن الروائي يعتقد "بعدم الايمان بالدين ، مع الايمان بالله" المصدر المذكور ص 242 .

والواقع أن شكوكاً عبّر عنها الروائي في (أولاد حارتنا) حول الجانب الغيبي (الميتافيزيقي) ، انظر الرواية ص 256 ، ويرى محفوظ كذلك انهيار الجدار النفسي الذي يعتمد عليه البشر لحل أزماتهم في عصر الدين ، ليبدأ عصر السحر ، والعلم انظر : (غالي شكري ، ص 260) .

7 ـ زكي نجيب محمود بين المنطق الوضعي والفلسفة العلمية/ الاعجاز القرآني في الكون واللغة القرآنية :

موقف «أ» :

حمل «زكي نجيب محمود» في منتصف هذا القرن لواء الفكر العلمي ، وكتب في الفلسفة العلمية وترجم للمناطقة الوضعيين ، وقام بردة فعل ضد أوهام العقل العربي ـ الاسلامي وأوثانه وفي عام (1953) صدر كتابه (خرافة الميتافيزيقا)(*) فكان ثورة في التفكير العربي الفلسفي في العصر الحديث ، وقد أحدث صدور هذا الكتاب ضجّة في الأوساط الفلسفية والدينية في مصر ، وكان الكتاب صدى لثقافة المؤلف الانجلوساكسونية ، أعني بشكل ادقّ صدى لقراءاته للفلسفة الوضعية المنطقية بما تتطلبه من تحليل لغوي ، ومنطقي للقضايا والمسائل ، وبعبارة ثانية تقوم هذه الفلسفة في جوهرها على مبدأ عام ، مبدأ التحقيق التجريبي للخطاب الفكري ، واللفظي ، وقياس مدى ما يقابله في الوجود المشخص فكل ما لا يخضع للتحقيق التجريبي من

(*) نُشر الكتاب حديثاً بعنوان (موقف من الميتافيزيقا) دار الشروق بيروت ، ط 83 ، 1987 .

/لغة/ وخطاب ، ومقالة ، أو نمط تفكير ، يظل واهياً ، والقضايا الكونية الميتافيزيقية الكبرى ، كوجود الله وخلود النفس ، والحديث عن الروح ، تقع في الدائرة اللفظية ولا تخضع لمبدأ التحقيق التجريبي وغير مشخصة فهي بالتالي وهم وخرافة .

حصلت معركة ثقافية أثناء صدور وانتشار هذا الكتاب ، فردّته التيّارات التقليدية الفلسفية والتيارات الدينية ، والماركسية ، إذ اعتبرته الأولى انعكاساً باهتاً للفلسفة التجريبية والثانية إلحاداً ، ومروقاً ، ونظرت إليه الماركسية على أنه تعبير عن مشكلات الطبقة البرجوازية اليمينية الليبرالية المتعفّنة ، ولا يعنينا الدخول في التفصيلات حول هذا الموضوع ، ولا نستطيع إطلاق حكم قيمة ، بقدر ما نهدف إلى تبيان موقفين متناقضين تماماً يعبّران عن تناقض وجداني دفين لدى المؤلف أي بين رفض العبارات الميتافيزيقية الخرافية ، والفكر العلمي والانتقال إلى الموقف التالي .

موقف «ب» :

يقول زكي نجيب محمود : (لبثت هذه الحال (العلمية) عنده (أي نجيب محمود) أعواماًوأعواماً يألف الفكر الأوروبي وهو طالب ، والفكر الأوروبي في تدريسه وهو أستاذ ثم أخذته في الأعوام الأخيرة صحوة قلقه) .

استيقظ كاتب السطور (أي زكي) بعد أن فاته أوانه ، أو أوشك ، فإذا هو يُحسّ الحيرة تؤرقه ، فطفق في بضعة أعوامه الأخيرة ، والتي لا تزيد على السبعة أو الثمانية يزدرد تراث آبائه[18] .

ولنقرأ النص التالي ونتساءل ماذا بقي لدى (زكي نجيب محمود) من الفكر العلمي والفلسفة الوضعية والمنهج التجريبي العلمي ، يخاطب قارئه قائلاً : «قل ما شئت عن معجزات الخلق الالهي في هذا الكون ، فكل ما يصادفك في رحابه الواسعة من أصغر كائناته إلى أكبرها ، إذا كان في وسعك أن تقف عند شيء منه قائلاً هذا هو أصغرها ، وعند كائن آخر قائلاً ، وهذا هو أكبرها ، لأن ما وراء ما تراه اليوم أصغرها ما هو أصغر ، ينكشف لك غداً وفوق ما تظنه اليوم أكبرها ، ما تعلم أنه أكبر

منه أقول : إن كل ما تراه مصادفة في هذا الكون الواسع جدير بأن يستوقف النظر بما قد انطوى عليه من إعجاز الخلق ، وحسبك من هذا الاعجاز ما قد ينكشف للانسان الباحث سره ، وهو سرّ يتجلى في القوانين التي تضبط سيرة بدءاً مما هو دون الذرة من جزئياتها فصاعداً ، إلى المجرات ، كل صغيرة في هذا الكون اللا محدود وكل كبيرة محكوم بقانون ، أو بمجموعة من القوانين يكشف العلم ما يكشفه ، **وبمقدار ما يكشف يزداد إدراكاً لعظمة الخالق عز وجل ، ومع ذلك الاعجاز القرآني في كل كائن على حدة** وقد انتظمته قوانين حتى لا يكون الأمر في وجوده فوضى»[19] .

عثمان أمين بين ديكارت والعقلانية / والغزالي ، وبرغسون (الاتجاه الروحي) :

موقف «أ» :

بدأ «عثمان أمين» حياته الفكرية باهتمامه بالفكر الفرنسي الذي يغلّب الجانب العقلاني والروح الديكارتية L'ESPRIT CARTESIEN وترجم كتاب (التأملات) لديكارت في الستينيات من هذا القرن ، ودرسنا ونحن طلاب في الفلسفة نصوصاً من ترجمته ،ولكن أمر اهتمام «عثمان أمين» بالعقلانية انقلب إلى الفلسفة الجوانية .

موقف «ب» :

نقل «محمد عابد الجابري» عن كتاب «عثمان أمين» (الجوانيّة) ما يلي :

يقول «عثمان أمين» «والجوانية محاولة للتعبير عن إيماننا العميق بضرورة الميتافيزيقا وكرامة المعرفة وسلطان الأخلاق» وتقوم على «تقديم الذات على الموضوع ، والفكر على الوجود والإنسان على الأشياء والرؤية على المعاينة ، والتمييز بين الداخل والخارج ، وبين الكيف والكمّ ، وبين بصر العقل وبصر العين «فهي إذن تنطوي على ضرب من الميتافيزيقا ، يمكن أن نسميها ميتافيزيقا (الرؤية الواعية) التي هي أقرب إلى (اللغة الفنيّة) ميتافيزيقا «تتبنى تفرقة «الغزالي» بين الرؤية (الحَدْسيّة) أو النور الذي يقذفه الله

في القلب» ، «والجوانيّة مؤمنة إيماناً راسخاً بأن القوة الحقيقية هي قوة الروح والمثل الأعلى» .

يقول «الجابري» تريد الجوانيّة ، أن تجمع بين الماضي والحاضر : «والجوانية تراعي ما يمكن أن نسميه في أخلاقيات أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) بلزوم الوسط ، وهي أيضاً أساس الأخلاق الصوفية كالغزالي وغيره»[20*]

يرى «الجابري» أن الطابع العام لفلسفة «عثمان أمين» هو (التلفيقية) والانشائية ، ولا تخلو من أسلوب بسيط وصحفي وتصرّ على تقديم **اللاعقلانية**والوعظية ، مشدودة بألف وثاق إلى **اللا عقل** في تراثنا العربي الاسلامي ، والمتطلعة إلى الارتفاع إلى مستوى **اللاعقل** في الفكر الاوروبي المعاصر (أي اعتماده على الروحانيات الاوروبية كـ (حَدْس ، الفيلسوف برغسون) .[21]

يُغلّب «عثمان أمين» بعد أن انقلب من المعقول إلى اللامعقول ، جانب القلب والروح والشعور أو ذلك القطاع الذي نسميه بالوجدان .[22]

مصطفى محمود مذكرات ماديّ / تائب إلى الله :

موقف «أ» :

يقول «مصطفى محمود» «بدأت أكتب بالخمسينات ، كانت الماركسية هي موضة الشباب الثائر في ذلك الوقت ، وكنا نقرأ منشوراتها ، فتحرك مثالياتنا بما تَعِدُ من فردوس أرضي وعدالة ورخاء وغذاء وكساء للعامل والفلاح ، ومحاربة الاقطاع ، والاستغلال ، وتحرير الجماهير الكادحة ، وكانت (موسكو) تبدو لنا في ذلك الحين الكعبة الأم لهذا الدين الجديد الذي يشعّ بالخير والرفاهية لكل من يدور في فلكه»[23]

---

*) جاء في أول صفحة من كتاب (الجوانية) لـ عثمان أمين الجملة الآتية : «إذا كان للرأس عينان فإن للقلب عيون» ط دار النهضة المصرية 1964 .

موقف «ب» :

يتراجع «مصطفى محمود» قائلاً : «وكانت لنا أول صحوة من ذلك الحلم حينما سافرنا إلى الخارج ورأينا الخراب والبؤس والوجوه الكئيبة المتجهّمة في المجر ، ورومانيا وألمانيا ، وكافة البلاد الشرقية التي تجري في هذا الفلك ، وقد احتاج هذا الأمر إلى سنوات من القراءة والعكوف على المجلدات الأصلية للمذهب لكي اكتشف الفساد والذي ليس في التطبيق ، ولكنه في المذهب»[24] .

لقد انتهى الأمر بالكاتب إلى العودة إلى الاسلام ويعلن توبته ، ويكثر كتابةً لتأكيد هذا الاعلان يقول : لم يأت الاسلام نتيجة انقلاب مناظر في نظام الانتاج وعلاقاته في قريش ، وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة»[25] .

الازدواجية أو التناقض الوجداني في الحياة العربية العامة :

في معرض حديثه عن هموم كاتب العصر ، وهو عنوان لكتاب «فاروق خورشيد» حول الازدواجية في دنيا العرب مصنّفاً إياها كما يلي على أصعدة ثلاثة يقول الكاتب :

أ : الازدواجية الثقافية (يريد أن يقول التعليمية) :

«منذ بداية التعليم الأولى في بلادنا وطفلنا ثم صبينا ، ثم شبابنا يعيش ازدواجية لغوية وازدواجية فكرية(*) ، وازدواجية اجتماعية تؤثر في بنائه العقلي والسلوكي والاجتماعي على السواء .

فهو لغوياً يتكلم في حياته لغة غير تلك التي يتعلمها في المدرسة ، أو يطالعها في الكتب أو يسمع بها في أحاديث الراديو وأخبار (الاذاعة المرئية والمسموعة - التلفزيون) . وفي كتب النصوص الأدبية وشرحها ، ويقف المتلقي في مراحل تعليمه كلها حائراً بين لغة

---

* يشير الكاتب ، دون أن يعلم ، إلى نقطة في غاية الأهمية ، أقصد : علاقة الفكر بالازدواجية اللغوية وهذه ترجع أصلاً إلى علاقة الفكر باللغة ، ذلك أن التفكير هو تفكير بلغة أو بإشارة .

النص نفسها وهي عالية القيمة موسيقياً ، وجمالياً وقاموسياً على السواء ، ولغة الشرح البسيط وهي لغة هابطة جمالياً وموسيقياً وقاموسياً»[26] .

ب ـ الازدواجية الفكرية :

يقول الكاتب المذكور «تعيش أجيالنا الجديدة في دنيانا العربية ازدواجية فكرية منذ الطفولة الباكرة ،وحتى مراحل الرجولة الكاملة ، ولا شك أن الازدواجية اللغوية التي يعيشها إنساننا العربي تسهم إلى حدّ كبير في خلق هذه الازدواجية الفكرية[*] ولكنها في الحقيقة وليدة عناصر متعددة ، لا تشكل الازدواجية اللغوية إلا عنصراً واحداً منها فقط ، وهو وإن كان أخطرها أثراً إلا أنه وحده لا يمثل ما نستشعره من خطورة العوامل الأخرى الفاعلة في فكر الشباب العربي ، وفي منحى تفكيرهم ومنهج هذا التفكير فلعل أخطر هذه العوامل هو : **التناقض القائم بين المثال والواقع** ، أو بين عالم تبنيه الانتماءات الدينية والعقائدية والفلسفية وبين الحياة الممارسة بالفعل التي يعيشها الشباب منذ الطفولة ، وحتى التكون ، ففي دنيا المثل التي يرسمها الدين والعقيدة الفلسفية يرتسم كل ما هو طاهر وعقيف ونظيف من معنى ، وفعل على السواء ، بينما في الدنيا الواقعية التي يعيشها الشباب يتجسد التكالب والتزاحم والطمع ليدمر كل ما ترسمه التعاليم الدينية والعقائدية والفلسفية أمامه وفي ضميره على السواء[27] .

جـ الازدواجية السلوكية :

جاء في الكتاب المذكور حول موضوع الازدواجية السلوكية ما يلي : «الازدواجية اللغوية التي يعيشها شعبنا العربي وكذلك الازدواجية الفكرية التي يعاني منها أنتجتا ما يمكن أن نسميه بالازدواجية السلوكية الاجتماعية ، ولعل هذه الازدواجية هي المحصلة الحقيقية لكل أنواع الازدواجية التي تسم الانسان العربي في هذا العصر ، فهو ابن الماضي العريق ويعايش الحاضر المتعثر ، وهو صانع الحضارة وبانيها ، وهو يتلمس طريقه اليوم عند حدودها ، وهو إنسان الأمس المتفوق ويواجه لوناً من التمييز العنصري

---

*) راجع الهامش السابق .

غير المفهوم في كل مكان من دنيا الغرب المتقدم ،وهو صانع القرار ومنفذه على طول تاريخه ، وهو اليوم يتلفت في قلق بحثاً عن المخرج من قرارات تفرض عليه ، وهو ابن الدين تستهويه الدنيا المفتوحة على مصراعيها أمام ثرواته .

فهذه الازدواجية هي المسؤولة عن عودة بعض القضايا المجتمعية على السطح بعد أن كنا قد ظننا أننا قد انتهينا منها إلى الأبد ، فقد عادت من جديد قضية (مكانة المرأة في المجتمع ، ودورها في الحياة ، وهل تعمل أم لا تعمل؟) ولعل الأكثر قرباً من هذه القضية وهي «هل نعيش معطيات حضارة العصر أم نعود إلى ما قبل أربعة عشر قرناً من الزمان نعيش عصر الرسالة بمعطياتها ووجودها الخلقي والحضاري معاً؟ وهذه الازدواجية السلوكية تنسحب إلى نظرتنا إلى الأمور التي تمسّ مستقبل عالمنا نفسه فنحن نادي بوحدة التراب العربي ، وضرورة التجمع القومي تحت ظل أي شكل من اشكال هذا التجمع ولكننا بسلوكياتنا نؤكد الفرقة»[28] .

التناقض الوجداني الشعبي :

قلنا في مقدمة هذا البحث أن الشعوب العربية في كثرتها المطلقة لا تزال تعول على الوجدان على حساب العقل والمعقول ، وأحياناً كثيرة تنأى بانفعالاتها المباشرة عن الفعالية الفكرية التي يحركها الانفعال المباشر لتستقيم في النهاية وتناقضات الوجدان وتتعايش معها ، وتتخبط بين موجاتها مرتفعة إلى قمّة الهَيَجان ، والفوران ، كل هذا عِوَضاً عن تعايش تناقضات عالمها على مستوى العقل أو التفكير الجدلي ناظرةً إلى الأمور في إثباتها ونفيها ، مميّزة بين إيجابها وسلبها ، ملتزمة بهذا ، آخذة بعين الاعتبار بذلك ، أو العكس دون الرقص على حَبْل مشدودٍ بين طرفين متنافرين ، أو الرقص على الحبلين .

يشير «حسن حنفي» إلى عدة أمثلة شعبية للدلالة على وجود ازدواجية بين الانشاء والإخبار مثل (مين يقرأ ، ومين يسمع ، الكلام مالوش جواب) وهناك أمثلة شعبية تؤيد وجود سمة الازدواجية بين القول/ الاعتقاد ، مثل (أكتم سرك تملك أمرك)

(يا قلب يا كتكت اسمع الكلام واسكت) .(*) (أصفق للجاي ، أومثم للرايح) (من يتزوج أمّي أقول له عمّي) (مات الملك عاش الملك) .

ولا يخلو التراث الشعبي المصري من بعض الأمثلة الشعبية التي تعبر عن الازدواجية المذكورة مثل (يحلف لي أصدقه ، أشوف أموره أستعجب) و(اسمع جعجعة ولا أسمع طحنا) ومما يؤيد الازدواجية بين القول والفعل أو الداخل / الخارج ، ظهور شخصيات شعبية تعبر عن تلك الازدواجية من أمثلة ذلك : (الفشار) و(الرغاوي) وشخصية (المهياص) و(أبو لمعة) كذلك هناك كثير من الأمثلة الشعبية التي تعبر مسألة الازدواجية منها (كثير النط ، قليل الصيد) .

اسهب المؤرخون في سرد بعض الخصائص عن المصريين تتفق مع السلوك المزدوج كالمقريزي . . . . الخ ، كثرة الحلفان بالله ، وبالطلاق من الزوجة بصورة غير جدية ، الزلفى للرؤساء في العمل ، كثرة وتكرار الاحترام الزائف والألفاظ المعبرة عن الترحيب المبالغ بالزائرين ، والأصدقاء ، وكثيراً ما تعبر تلك الألفاظ ، أو العبارات عن واجب المجاملة ، وليس بما يجول في نفس الشخص من مشاعر [29] وكقول بعضهم لزائر ما : (ممكن أهنيء نفسي أن سعادتك جاي زورني شخصيّا؟ وجوابها بنعم ، فيقول المُستقبِل (يبقى حلمي تحقق) .

وهناك أمثلة لا تحصى في واقعنا العربي يعايشها الناس في حياتهم اليومية ، بوعي حينا أو بلا وعي أحياناً ، وهي تعبر عن التناقض الوجداني الصارخ مثل : ما يسلكه الطلبة وغير الطلبة من العرب الذين يذهبون إلى الدول الأجنبية (الغربية والشرقية) من مسالك تختلف وتتناقض تماماً مع مسالكهم عندما يعودون إلى بلادهم .

أما في حياتنا اليومية فالتناقضات تعيش في كل جانب منها ، مثل : أن يمتطي

---

*) جرى التركيز في البحث على الشخصية العربية في مظهرها المصري ، كعيّنة ، كما اشرنا سابقاً ولكن يمكن أن يشمل أنماط مختلفة للشخصية العربية كالشامية والعراقية والمغربية . . . الخ .

أحدنا سيارة حديثة وآخر موديل ، ويكتب على أحد جوانبها عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) أو (الله أكبر) ، أو يبني بناية جديدة ، أو بناء من طراز رفيع مواده ، وكل ما فيه من صناعة أجنبية ، ويضع عبارة ، (ما شاء الله) ، وكذلك الشخص الذي يقود سيارته المارسيدس أو غيرها ، ويسمع في داخلها موسيقى أجنبية راقصة أو أغنية أجنبية ، وخلفه على المقعد نسخة من القرآن الكريم ، أو الحديث النبوي الشريف ، والمرأة العربية وأحياناً المسلمة التي ترتدي آخر تقليعات العصر وتمارس في بيتها أشد الطقوس الاجتماعية تقليدية كلاماً ، وفعلاً ، وكذلك بعض الشباب العربي المسلم عندما يذهب إلى بلاد الفرنجة ، والكفّار ، يرتكب كل المنكرات والموبقات ، والمحرّمات في نظر العقيدة الاسلامية ، ويمتنع عن تناول لحم الخنزير لأنه محرّم في الاسلام ، وأيضاً السابحات من النساء العربيات ، على شواطىء البحار الأوروبية ، يَعُدنَ إلى بلادهن ليضعن الحجاب ، وليسترن عوارتهم . . . الخ والقارىء لا يجهل مثل هذه المسالك المتناقضة أو المواقف الازدواجية التي تغمر حياتنا كلها .

وأتساءل أخيراً كم من الرجال العرب الثوريين والتقدميّين والماديّين التاريخيين أو الليبراليين والمستغربين ، في الحياة ، يسلكون ويفكرون بما تمليه عليه اعتقاداتهم العامة ، بينما يسلكون في حياتهم الخاصّة سلوك شخصية «نجيب محفوظ» أحمد عبد الجواد في (الثلاثية) المشهورة؟

القسم الثالث

تناولنا في القسمين السابقين مشكلة التناقض الوجداني ، خلفيتها التاريخية التراثية ، وتجلياتها في العصر الحديث لدى عينة من المثقفين العرب ، وأخيراً التناقض الوجداني على صعيد الحياة الشعبية والوجدان الجماهيري ، من خلال طائفة من الأمثال والأقوال التي ترددها الناس ومن خلال بعض السلوكيات الظاهرة .

وفي هذا القسم سنعمد إلى تفسيرين : تحليلي نفسي فردي ، وتفسير اجتماعي لهذه الظاهرة مبتدئين بالمشكلة لغة ، واصطلاحاً .

قاع اللغة العربية :

لم تتناول اللغة العربية في معاجمها ، كما أعرف كلمتي : التناقض الوجداني ، لأن تجاور هاتين الكلمتين واجتماعهما في معنى واحد جاء من اللغة الأجنبية ، وهما ترجمة لكلمة AMBIVALENCE ، ولكن المعاجم تناولت كلمة (وجدان) «فالوجدان في اللغة يُطلق على الاحساس الأوليّ باللذة والألم ، وثانياً على ضَرْب من الحالات النفسية من حيث تأثرها باللذة والألم في مقابل حالات أخرى تمتاز بالادراك والمعرفة»[30] .

ولكن العرب نَظَرت إلى مسألة أخرى على صلة بهذه المشكلة أعني مشكلة : الأضداد في اللغة ، وذهبوا إلى البحث في وجودها في أعماق اللغة أو طبيعتها ذاتها ، إذ أن عدداً هائلاً من الألفاظ العربية تعبر الواحدة منها عن : الضدين ، وذلك بحسب السياق المستخدم ، ولقد وضع «الأنباري» كتابه (الأضداد) وكذلك «الأصمعي» و«السجستاني» «ابن السكيت» و«الصنعاني» وتحدثوا عن الاضداد»[31] .

المصطلح حديثاً :

أما التناقض الوجداني اصطلاحا ، فهو بالفرنسية والانكليزية (لغةً) يدلّ على وجود ، أو بمعنى أدق ، تعايش متعارضين أو أكثر في حالة صراع ، وكذلك شعور المرء من جراء تعايشهما هذا بعدم القدرة على حسم الأمر ، أو اتخاذ قرار (32) وبتفصيل أكثر ، إنه يدل في المنطق على : تساوي الحدّين ، وفي علم النفس على : تعارض

(صراع) تناقض وجداني وقد يصل بالأمر إلى حالة مرضية ليدل على العجز عن اتخاذ قرار ، وفي الفلسفة على : الثنائية -DUALISME وفي الأخلاق على ازدواجية السلوك ، وفي الحياة السياسية : التذبذب في المواقف ، وفي الحياة الاجتماعية على : النفاق وفي البلاغة أو في الأدب (البديع) على : الطباق وهو من المحسّنات اللفظية ، وهو ليس حديثاً بل عرفه البلاغيون العرب منذ القديم . .

ولقد ورد في شرح هذا المصطلح في الطب النفسي على أنه تكافؤ الضدين إذ «يغلب استخدام هذه العبارة من حيث يكون لدى الشخص عاطفتان متعارضتان ، أو انفعالان متناقضان كالحبّ ، والبغضاء ، نحو شيء أو شخص بعينه وفي وقت واحد ، وكأنهما خطين مختلفين يتجاذبانه PIPOLARITY وترى مدرسة التحليل النفسي أن اللاشعور عند الجميع يحوي الانفعالات المتعارضة جنباً إلى جنب ، ويتضح التناقض الوجداني في الحالات التي تقل فيها عمليات الكبت REFOULMENT كما في الذُهان ، وفي الأحلام وفي الطفولة[33] وقريب من ذلك أيضاً ازدواج الوعي : DOUBLE ORIENTATION وقد يُستخدم اللفظ كما في الألمانية ازدواجية الاتجاه -AMBITENDEZ[34] ولقد ذهب معجم مصطلحات التحليل النفسي شارحاً هذا المصطلح دالاً على أصوله الأولى عند علماء النفس قبل «فرويد» S.FREUD وتوسع المعجم في شرح هذا المصطلح ، وانطلق من اعتباره تجاذباً وجدانياً أي «تلازم وجود ميول ومواقف ، ومشاعر متعارضة ، وأبرز نموذج له ، الحب والحقد في العلاقة مع الشخص نفسه ، ولقد استعاد «فرويد» مصطلح التجاذب في «بلويلر» E.BLEUER الذي نحته وعالج به مسألة التجاذب في ثلاثة مجالات : مجال إرادي ، حيث يريد الشخص مثلاً أن يأكل ولا يأكل في نفس الوقت ، ومجال فكري ، حيث يطرح الشخص في آن معاً الفكرة ونقيضها ، ومجال عاطفي ، حيث يحب ويكره الشخص نفسه في حركة واحدة ، ويجعل «بلويلر» من التجاذب الوجداني واحداً من الأعراض الرئيسية للفصام ،ولو أنه يعترف بتجاذب وجداني سوي»[35] وتكمن أصالة فكرة «التجاذب الوجداني» مقارنةً بما سبقها مما وصف على أنه تعقيد العواطف ، أو تذبذب

المواقف في الحفاظ على تعارض من نمط : نعم/ لا ، حيث يكون التوكيد والنفي متآنيان ، وغير منفصلين عن بعضهما بعضاص هذا من ناحية ، كما تكمن أصالتها من ناحية أخرى في إمكانية تواجد هذا التعارض الأساسي في مختلف قطاعات الحياة النفسية وينتهي «بلويلر» بإعطاء المكانة المفضلة للتجاذب العاطفي ، وهو نفس المعنى الذي يوجه استخدام «فرويد» لهذا المصطلح ، ويظهر هذا المصطلح ولأول مرة عند «فرويد» في (دينامية النُقلة) كي يبين ظاهرة النُقلة السالبة : «يميز التجاذب الوجداني بعض مراحل تطور (الليبيدو) حيث يتواجد الموضوع ، وتدميره في آن معاً»[36] .

إن ما يميز هذا النص هو تناوله أبعاد التناقض الوجداني من إرادي ، وفكري ، وعاطفي كما ذكرنا في الفقرة السابقة ، وسنقف في الفقرة الثانية عند فكرة التعارض اللا جدلي في مضمون هذا المصطلح ، يقول أصحاب معجم التحليل النفسي . «. . ولكن يحتفظ مصطلح التجاذب الوجداني بقيمته الوصفية ، وحتى بقيمته كعارض والتي اتخذها في الأصل ، ويحسن اللجوء إليه فقط في تحليل الصراعات النوعية حيث يتواجد في آن معاً الشطر الايجابي ، والشطر السلبي للاتجاه العاطفي بشكل لا ينفصلان فيه عن بعضهما ، مكوّنين بذلك تعارضاً غير جدلي ، يعجز فيه الشخص الذي يقول في نفس الوقت نعم ـ لا عن تجاوزه ويتابع أصحاب (المعجم الحديث) شرحهم لهذا المصطلح بقولهم : «هل من الواجب كي نتمكن من جلاء التجاذب الوجداني في نهاية المطاف افتراض ثنائية أساسية كما تحضنا عليه النظرية (الفرويدية) في النزوات؟

وهكذا يمكن تفسير التجاذب ما بين الحب والحقد من خلال تصورهما الخاص ، حيث يستمد الحقد أصله من نزوات حفظ الذات ، فيكمن ، نموذجه الأول في صراع الأنا من أجل الحفاظ على ذاته وتوكيدها ، كما يستمد الحب أصله من النزوات الجنسية ، ويرسخ التعارض ما بين نزوات الحياة ، ونزوات الموت الوارد في مفهوم (فرويد) الثاني ، التجاذب الوجداني بشكل أكثر قطعية في الثنائية النَزْويّة قارن : اتحاد/ انفصال»[37] .

نترك مجال تفسير المصطلح ، بعد أن وقفنا في النص السابق عند عبارات جديدة بالمقارنة للنصوص الشارحة لهذا المصطلح مثل : الشطر الايجابي ، والشطر السلبي في الاتجاه العاطفي ، ومن افتراض ثنائية في باطن التجاذب الوجداني ، وأخيراً النزوات ، والطابع الغير جدلي للتعارض القائم في جوانيّة هذا المصطلح ، وسنرنو بأعطافنا نحو الرؤية (الفرويدية) للتناقض الوجداني ،وبذلك ندخل بما ندعوه بالمجال الحيوي LIFE SPACE للنظرية الفرويدية في التناقض الوجداني .

التفسير الفرويدي للتناقض الوجداني ، انتماء الموضوع للحياة الانفعالية :

التناقض الوجداني بمفهومه العام وكما ورد عند (فرويد) S.FREUD عبارة عن تواجد أو تعايش عاطفتي الحبّ والكراهية في آن واحد ، إزاء موضوع ، و(إنه استعداد فطري كامن في كل فرد ، وقد يكون استعداداً عظيماً ، أو ضئيل الشأن ، ويعود الأمر في نهاية المطاف إلى صراع غريزتين (دافعين) إنسانيتين في النفس الانسانية هما : (ايروس EROS (الحب) والموت ، أو التدمير ، وهو بعبارة أخرى تلازم الفعل والانفعال أو السلب والايجاب على صعيد الحياة الانفعالية[38] ، ولقد نظر «فرويد» عام 1915 إلى التناقض الوجداني على أنه **تعارض انفعالين** ، ثم وضع المصطلح بعبارات ميتاسيكولوجية وأصبح تعبيراً عن صراع انفعالين : الحب والكراهية كغريزتين بدائيتين ، ثم أخذ يميل إلى اعتبارهما متواجدين إزاء نفس الموضوع ، وقد تطور الأمر عند «فرويد» إلى اعتبارهما يطغيان على الذات ، EGO بكاملها إزاء الموضوع .[39])

أخيراً يُلحّ «فرويد» على الصفحة الصراعيّة لهذين الانفعالين لدى الفرد ، ويخلص إلى القول إلى أن أصول التناقض الوجداني ظاهرة أساسية في الحياة الانفعالية ، وهذان الانفعالان ميلان فطريان في كل واحد منا ، متعلقان ببنية الغرائز الانسانية .

يعرف المطّلعون على نظرية «فرويد» فرضيته في التقسيم الطبوغرافي للنفس

الانسـانية إلى : الأنا ، والهو ، والأنا العليا ،ويُعزى إلى«فرويد» الاكتشاف العظيم الأهمية أقصد : اللا شعور ، وتركيزه على النظرية اللبيدية LIBIDO في تاويل حياة الفرد والمجتمع والحضارة ،والتاريخ الانساني .

فبالنسبة لظاهرة التناقض الوجداني يربط «فرويد» هذه الظاهرة بالثنائية الجنسية الكائنة في بنية الفرد ، ويرى أن في كل فرد عناصر ذكورة وعناصر أنوثة ،ويصف حالة الطفل الذكر في أبسط صورها كما يلي : «يبدأ الولد الصغير في سنّ مبكرة يشعر بالحب نحو أمّه ، وهو حب كان في الأصل متعلّقا بثدي الأم ، كما أن أول حالة من حالات اختيار الموضوع تنشأ في صورة الاعتماد على الأم ، أما فيما يتعلق بالأب ، فإن الولد يقوم بتقمّص شخصيته وتبقى هاتان العلاقتان جنباً إلى جنب لفترة من الوقت حتى تأخذ الرغبات الجنسية المتجهة نحو الأم تزداد في الشدّة ، ويأخذ الأب يبدو وكأنه يعوق من تحقيق هذه الرغبات ، ومن ذلك تنشأ عقدة (أوديب) ، ثم يأخذ تقمّص شخصية الأب بعد ذلك يتّخذ صفة عدائية ويتحول إلى رغبة في التخلص من الأب لكي يأخذ مكانه من الأم ، وتصبح علاقته الوجدانية مع الأب منذ اللحظة الأولى متناقضة ، ويبدو وكأن هذا التناقض الوجداني ، وهو أمر طبيعي في التقمص منذ البداية ،وقد أصبح واضحاً ، ويتكون من موقف التناقض الوجداني نحو الأب علاقة الحب الشديدة نحو الأم مضمونة عقدة (أوديب) الايجابية البسيطة عند الولد[45]»

الحب المتأجّج والكراهية الشديدة :

إن الجوهر العميق للطبيعة الانسانية (على افتراض وجود طبيعة إنسانية) كما يرى «فرويد» يقوم على الغرائز الأولية التي هي مشتركة بين جميع الناس ، وهي تهدف إلى إشباع الحاجات اليومية ، إنها غرائز بدائية تمرّ بعملية ، إنها تُقمع ، وتُوجه نحو أهداف معينة وتصبح متمازجة ، وتغير موضوعاتها ، وتنقلب إلى حد ما على صاحبها ، ويتخذ تكوين ردود فعل عكسية ضد غرائز معينة شكلاً خادعاً ، ويتغير المضمون كما لو كانت النزعة الأنانية EGOISMEقد تغيرت إلى نزعة غيرية ALTRUISME أو القسوة إلى

شفقة ، ويحدث من ردود الفعل العكسية أن كثيراً من الغرائز تظهر غالباً من البداية في صورة أزواج من الأضداد ، وهي ظاهرة ملحوظة للغاية ، وغريبة على الناس العاديين ، وهي ما يسمى بالتناقض الوجداني(*) للاحساس ، وأكثر الأمثلة وضوحاً وسهولة على الفهم هي حقيقة أن الحب المتأجج ،والكراهية الشديدة ، غالباً ما يتواجدان معاً في شخص واحد .(41)» .

وجدان ، تناقض وجداني ، التَوْتَم والتابو :

يعالج «فرويد» الموضوع على صعيد حياة الشعوب ، أو صعيد الانفعالات الاجتماعية وذلك من خلال نظريته في : التوتم والتابو ، TOTEM ET TABOU فلقد وجد أن أعلى درجة من التناقض الوجداني تتواجد لدى مجموعات الشعوب التي تتمتع بعصبية شديدة(42)» ولقد حدّد العالم النفسي «فونت» قبل مجيء «فرويد» التابو بأنه المدنّس والمقدّس ، والتناقض بينهما قائم(43) ، تتضمن كلمة (تابو) إذن معنى مزدوجاً ، يقول «فرويد» : «لقد علمتنا دراسة اقدم اللغات أنه قد وُجد منذ القِدَم الكثير من هذه الكلمات التي كانت تحتوي أضداداً في داخلها (انظر مسألة الاضداد في اللغة العربية) غير أن كلمة (تابو) لاقت مصيراً آخر وقد تراجعت أهمية الازدواجية التي تعبر عنها هذه الكلمة ، واختفت هي نفسها ، أو لنقل اختفت الكلمات المقابلة لها من الثروة اللغوية ، ولقد ارتبطت الكلمة كذلك ،ومنذ البدء بصلات بشرية محددة تماماً اتسمت بازدواجية عاطفية كبيرة ، وأنها فيما بعد ، وانطلاقاً من هذا ، امتدت إلى صلات أخرى مشابهة»(44) .

---

*) واضح أن ظاهرة التناقض الوجداني لا يقتصر ظهورها على الشخصية العربية وإنما موقف إنساني عام ، لقد كانت «مدام دي ستايل» DE STAEL تشعر بغبطة عندما تنتقل شعورياً (وجدانياً) من طرف إلى أقصى طرف آخر يقابله أو من النقيض إلى النقيض : DE L'EXTRÊMMITÉ À L'AUTRE ، انظر الفقرة التالية .

لقد تحدث «فرويد» كذلك عن ما اسماه بـ (الوجدان التابوي) وهو على الأرجح أقدم شكل نلتقي فيه بظاهرة الضمير CONSCIENCE إذ ما معنى ضمير حسب منطق اللغة؟

ينتمي الضمير على أكثر مما يعرفه المرء ، يقيناً ، وفي العديد من اللغات لا تفترق عبارة ضمير كثيراً عن عبارة الوعي ، وغالباً ما ينشأ الضمير على أرضية من الازدواجية العاطفية ، والخلاصة أن ظاهرة التناقض الوجداني كما يرى «فرويد» ظاهرة إنسانية عامة غير مقتصر على شعب من الشعوب ، وان الوعي التابوي ، أو الوجداني الجمعي غالباً ما ينشأ على أرضية من الازدواجية العاطفية الانفعالية[45] .

طرق أحد الباحثين العرب في علم النفس موضوع التناقض الوجداني ، ورأى فيه قانوناً وأورد حكاية وردت عند «طه حسين» ليدلل على تواجد هذين الانفعالين ، يقول يــوســف مراد: «إن قانون العاطفة الأساسي هو قانون اجتماع الضدين LOW OF AMBIVALENCE وقد أقامت مدرسة التحليل النفسي الدليل على صحته ، فليس الصراع قائماً بين العواطف المختلفة فحسب ، بل هو قائم في طيّات العاطفة الواحدة نفسها ، فكل عاطفة مهما كانت سامية تحمل في ثناياها بذور العاطفة المناقضة لها ، فالشفقة دائماً ممزوجة بشيء من القسوة والتعذيب بشيء من العطف ، والحب بشيء من البغضاء ، وعناصر البغضاء تظهر حيناً ، وتختفي حيناً آخر ، وهي تحمل حبّاً ، وحيناً دون أن يشعر به الشخص ، ولقد ذكر «مراد» الفقرة التالية من قصة (دعاء الكروان) لـ«طه حسين» : «أصبح من أعسر الأشياء ،واشقّها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التي تتصور مرة كأنها النفور الذي لا نفور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الاقبال الذي لا اقبال بعده ، وهي في الحالتين شيء واحد تختلف عليه الصور والأشياء ، دون أن يتغير جوهره الذي هو الحب»[46] .

نقد التفسير الفرويدي ، الوحيد الجانب ، للتناقض الوجداني :

ترجع أهمية «فرويد» إلى كونه أوّل من وضع إصبعه على مصطلح التناقض الوجداني محللاً إيّاه وشارحاً ومعلّلاً وجوده ، ملقياً ضوءاً باهراً على مضمونه ، رغم أن اثنين آخرين من العلماء كانا قد أبديا بعض الاهتمام ، ولكن «فرويد» أدخله ضمن نظريته العامة في النفس الانسانية .

لقد وجد «فرويد» أن للتناقض الوجداني أسباباً تعود إلى الطفولة الأولى للانسان وربطها بمبدأي اللّذة والألم ، أو على حد تعبير «أبو حيان التوحيدي» بالغرائز المتعادية فالحياة تحمل في باطنها بذرة تدميرها ، كما أن الوجود يتضمن العدم ، والكل يعتمد على التناقض في الفكر ، والعاطفة ، والحياة ، ولكن التناقض الوجداني هنا ، بدا ، وكأنه التجلّي المطلق ، والوحيد للحياة ، أمرٌ نلحظه في السلوك ظاهراً ونستبطنه باطناً ، وأن الجميع يدرك أو يحس الازدواجية الوجدانية في صورها المختلفة .

إن نظرية «فرويد» في مجملها افتراض علمي إذ لا شيء يتيح لنا أن نَلْمس أو نلاحظ ملاحظة علمية مباشرة على ما يسمى باللاشعور ، وإنما نعرف هذا الأخير من نتائجه في السلوك ، كذلك تظهر العقبة الكأداء في افتراض «فرويد» في إرجاع ظواهر الحياة الفردية ، والاجتماعية (الحياة الوجدانية ضمناً) والحضارية إلى (الليبيدو) مصطلح عام شامل ، يوحي بمعنى وجود طاقة (ليبيدية) جنسية ، ليس بمعنى اللذة الجنسية ، وإن كان يشملها ، بل كل لذة ، أو متعة فميّة ، أو عضوية عامة الخ . . .

لقد وُجّهت انتقادات كثيرة إلى النظرية الفرويدية منذ ظهورها وحتى يومنا هذا وبعض هذه الانتقادات انصبّ على التصوّر العام للانسان عند «فرويد» : «هناك الكثير مما كُتب عن صورة الانسان في التحليل النفسي ، وهذه الصورة معروفة جيداً ، وتشبه في بعض الجوانب ما ذهبت إليه المدرسة الوضعية ، فالانسان كائنٌ شبه آلي رادّ للفعل QUSI–MECHNICAL REACTOR محكومٌ بثلاث قُوى طاغية : البيئة ، والهي ID والأنا الأعلى ، ويتوافق الانسان بقدر ما يستطيع داخل هذا المثلث من القوى ، وفيه يكون لتعلقه المتعاظم اعتبار ضئيل وطالما أنه غاص بالدفاعات وميال إلى التبرير ، يكون سعيه إلى الحقيقة القصوى منوطاً بالفشل ، وإذا أراد أن يجد الحقيقة في الدين اعتبر هذا

الكشف وهما ويظل يشحن حتى يصل إلى (حالة عُصابية ، فهناك تشاؤم عميق في النظرية التقليدية للتحليل النفسي أو المنهج الفرويدي ، فالإنسان محكوم بكل عنف بالقوى اللا شعورية ، للأنا بحيث لا يستطيع أن يتخلص أبداً كلية من الاستيحاش والقساوة والشهوة في طبيعته ، وفي ذلك يكون الاعلاء أفضل ما يمكن أن نأمله ، فليس ثمة تحويل أصيل للدوافع»[47]*

لا شك أن مجموعة من المحرّمات ، وقد أشار إليها «فرويد» والتي وضعتها الأديان في الماضي والعقائد والأيديولوجيات في الحاضر ، تدفع إلى السلوك والتفكير الازدواجيين ، وإلى العيش داخل دائرة مبهمـة من التناقض الوجداني بين : الظاهر والباطن ، وعلى صعيد الكلمة ، أي قول كلمة الحق التي يُراد بها باطل ، وارتكاب المحرّمات من وراء الحجاب ، وقول الذم في صورة المديح ، وقتل الانسان لحظة إهدائه باقة من الزهور ، والقباحة النفسية والتفكير التي تعكسها شخصية أنيقة المظهر ، بهيّة الطلعة ، ومن سوء الطالع أن هذا النمط من الازدواجيات وغيرها لا يحصى لا يزال يُعاش ويُمارس في المجتمع العربي المعاصر ، ولا تخضع هذه المسالك الازدواجية إلى رقابة العقل ، أو الوعي الموضوعي .

وتظلّ توتراً وجدانياً انفعالياً سطحياً يطفو على سطح حياة الفرد فيحكم أفعاله وتعبيره وعلى سطح المجتمع ، ووسط الحياة الخاصة والعامة .

يعرف المطلعون ، والمهتمون بالتاريخ الأوروبي ، أو الغرب عموماً ، أن الحضارة الغربية المعاصرة قد مرت بمراحل نشهد تطوراتها المعاصرة المذهلة .

---

*) تقف المدرسة السلوكية الأمريكية BEHAVIORISM في علم النفس (واطسون) WATSON في مقابل التحليل النفسي الفرويدي ، إذ ترى أن كل حديث عن سلوك له أسبابه الداخلية INSIDE أو الباطنية هراء وباطل علمياً فهي أساب باطنة لا تخضع للملاحظة المباشرة ، ولا تقع في عالم الأعيان ، وهي غير مفهومة ،والخلاصة لقد أهملت السلوكية كل حديث عن الباطن ، أو اللاشعور .

ففي الثقافة ، بدأ عصر النهضة الأوروبي بالعودة إلى الآداب والانسانيات القديمة وسمت قيمة الفرد ، وفي القرن السابع عشر ساد العقل في التفكير والوجود ، وفي القرن الثامن عشر قامت الثورة الصناعية ، وفي القرن التاسع عشر عصر الأنوار ، أو الاستنارة ، وفيه بلغ تطور العقل درجة رائعة ، مجابهاً بذلك الرومانسية في الآداب الغربية ، وفي الاقتصاد توسعت التجارة والصناعةوصاحبهما توسع استعماري ، وفي السياسة ، انتشرت الأفكار الديمقراطية ولا تزال هذه الديمقراطية تحكم (العالم الحر) ، وفي العلم ، تطورت نظرياته وامتدت تطبيقاتها التكنولوجية وصولاً إلى العصر الألكتروني الحالي ، وهذه صورة عامة جداً للخليقة التاريخية للحضارة الغربية .

أملت هذه الوقائع ، أنماط سلوك ، وفكر ، تجاوزت الازدواجية الوجدانية التي نتحدث عنها فالنظرية ترافقها الممارسة في هذه المجتمعات ، والقول يصحبه العمل ، والعمل يتم بصدق وإخلاص ، والعواطف يُعبّر عنها ، ويُصرّح بها ، وتُقتنى مُتع الحياة ، ومباهجها بداهة وطواعية وخلاصة الأمر : إن العلاقات الانسانية ، عموماً ، أشد وضوحاً وصراحة وعقلانية في هذه المجتمعات ومجالات النفاق ، والخطأ ، والممارسات المتناقضة ، والمسالك الازدواجية ، محدودة جداً ، ويسود الحياة العامة اليومية عقلانية صارمة ، وتميل الغالبية المطلقة في مجتمعات الغرب إلى تغليب العقل في الفكر والحياة .

القسم الرابع

التفسير الاجتماعي للتناقض الوجداني/ وجهات نظر عربية :

نقدم فيما يلي وُجهات نظر عربية حول تفسير ظاهرة التناقض وسنعرضها حسب التسلسل الزمني ، أو حسب ظهورها ، دون التزام بأيّ منها من جهة كاتب البحث ، إذ أن وجهة نظر الباحث ستُعرض في حينها .

أ ـ حامد عمار ، التناقض الوجداني في الشخصية المصرية والفهلوية (1964م)

يحدد «عمار» هذه الظاهرة بستة أسباب هي :

1 ـ القدرة على التكيف السريع لمختلف المواقف وإدراك ما تتطلبه من استجابات مرغوبة والتصرّف وفقاً لمقتضياتها إلى الحد الذي يراه مناسباً ، وتتميز تلك القدرة بجانبين متلازمين وهما : المرونة والفطنة ، والقابلية للهضم والتمثيل والمسايرة السطحية والمجاملة العابرة التي يُقصد منها تغطية المواقف ، وتورية المشاعر الحقيقية ، مما لا يعني الارتباط الحقيقي بما يقوله المرء أو بما قد يقوم به من مظاهر سلوكية .

2 ـ النكتة المؤاتية ، والتي غَدَت من الخصائص التي يتميز بها النمط المصري .

3 ـ المبالغة في تأكيد الذات ، والميل الملحّ إلى إظهار القدرة الفائقة والتحكم في الأمور .

4 ـ سيادة نظرة رومانسية للمساواة حيث يشعر المصري في قرارة نفسه بالنقمة والسخط على الأوضاع التي توجد التمايز والتفرقة أياً كان نوعها .

5 ـ سيادة الرغبة في الوصول إلى الهدف باقصر الطرق وأسرعها وعدم الاعتراف بالمسالك الطبيعية [48] .

ب ـ جمال حمدان : تناقض وجداني أو ازدواجية ذات محددات اجتماعية (1967) :

يقول «حمدان» بأن الرأي يتفق على إرجاع خاصية الازدواجية في الشخصية المصرية إلى الطغيان الاقطاعي ، وإلى فترات الاستعمار الطويلة وإلى أساليب التعذيب الوحشية التي تعرض لها الفلاح المصري ، لمئات السنين ، وفي هذا المعنى يقول أيضاً هذا الباحث : ولهذا فإن الصفات والمزايا الأخلاقية التي يجدر بالبيئة

الفيضية؟ أن تعلمها ، وعلمتها بالفعل لم تلبث أن تحولت تحت البطش والطغيان الاقطاعيين ، في ظل انتخابها المعوج إلى نقائضها ، فالنظام والقانون أصبحا جبناً واستكانة ووشاية وسلبية ، وتحولت روح التعاون إلى المحسوبية والمحاباة كما انقلبت إلى الأخذ بالثأر ، أما المزاج الانطلاقي الذي غذته بيئة الفرد النووية (الأسرة) فتدهور غلى تزلف ورياء وسعي لدى السلطان وكذلك إلى روح السخرية المريرة المشهورة [49] .

ج ـ حسن حنفي ، تفكير ديني ازدواجي (1969) :(*)

جاء تعبير حسن حنفي حول هذا الموضوع عقب هزيمة العرب أمام اسرائيل (1967) وبعد هذه الهزيمة صدرت بعض الدراسات حول أبعاد الشخصية العربية الاسلامية والشخصية المصرية بشكل خاص ، فقد ذهب «حسن حنفي» إلى وجود بعد الازدواجية في هذه الشخصية ، مفسراً لها كما يلي :

هناك أربعة جوانب لبعد الازدواجية هذا ، أي أنها تظهر في الانشاء/ الإخبار ، القول/ الاعتقاد ، القول/ العمل وأخيراً بين الداخل/ الخارج ، ويربط «حسن حنفي» بين التناقض الوجداني بالتفكير الديني ، وقد وضع عنواناً لا يخلو من معنى هو : التفكير الديني وازدواجية الشخصية ويدلي بشواهد ثقـافيـة[50] ولكنه يفرّ من ربط ظاهرة التناقض الوجداني بالفكر الديني مباشرة بالنسبة للشخصية الاسلامية على الأقل .

د ـ زكي نجيب محمود ـ تناقض وجداني وأزمة قيم ، وانفصام في الشخصية (1981م) : يعد د . «زكي نجيب محمود» مراحل سير حياتنا بثلاث : المرحلة الأولى التقليدية ، والثانية ، التحول ، والثالثة : الانطلاق ويقول : أول ما يُلفت نظرنا ونحن على مشارف الانطلاق ازدواجية القيم ، فنحن مشدودون اليوم بين قديم وجديد بأجسادنا على نحو ، ونفكر بعقولنا ونحس بقلوبنا على نحو آخر ، كمن يعزف على القيثارة لحناً ، ولكنه يغني لحناً آخر [51]

---

*) انظر الخلفية الدينية في القسم الأول من هذا البحث .

هـ ـ فاروق خورشيد ـ الهوّة بين المثال والواقع/ تناقض وجداني (1981م) :

يرد «فاروق خورشيد» الذي اشرنا إلى حديثه في هذا البحث الازدواجية الثقافية والفكرية والسلوكية إلى أسباب نستخلصها من مقاله وهي :

1 ـ «تشارك في صنع الازدواجية الثقافية ، ازدواجية اللغة والمدرسة والصحيفة والاعلام .

2 ـ ازدواجية فكرية تعود أسبابها إلى الهوّة بين المثال والواقع ، وكونها أكثر بروزاً في بيئتها التي يعيش فيها الدين في أعماقها منذ فجر التاريخ (انظر مقالة حسن حنفي السابقة) .

3 ـ الازدواجية السلوكية ، بدأت بشكل واضح منذ اتصالنا المباشر بالنموذج الغربي اجتماعياً وسلوكياً ، وحين عايشناه في بلاده طلبا لما عنده من علم ومعرفة في أول يقظتنا المعاصرة ، وطلباً لما عنده من متعة ورخاء بعد ذلك ، وحين احتككنا به مستعمراً ، غازياً محتلاً ، ثم تقليده ومسايرته والاحتفاء به من وقتها إلى الآن»[52] .

و ـ محمد عابد الجابري ـ التناقض الوجداني والترحال الثقافي (1984) :

تناول «محمد عابد الجابري) ظاهرة التناقض الوجداني عابراً ففي كتابه (تكوين العقل العربي) ودعيت هذه الظاهرة بـ (الترحال الثقافي أو تداخل الأزمنة الثقافية) يقول المؤلف : «هذا الواقع واقع تداخل الأزمنة في فكر المثقف العربي هو ما يفسر ظاهرة مزعجة في الفكر العربي المعاصر ، ظاهرة المثقفين الرُّحل أي الذين يرحلون عبر الزمن الثقافي العربي من المعقول إلى اللا معقول ، ومن اليسار إلى اليمين بسهولة لا تصدق ذلك أن التلقي هنا يصدر عن : الشعور والانفعال ، أو الاحساس المباشر وبدون ذكر أسماء تكفي الاشارة إلى القفز على صعيد المواقف المبدأية حول قضايا الوحدة والاشتراكية والديمقراطية ، والاسلام والعروبة ، والعلمانية وهي القضايا الرئيسية في الفكر العربي المعاصر ، كما قد يكفي التلميح من جديد إلى ظاهرة الهجرة من المعقول إلى اللا معقول التي سادت منذ بضع سنين أوساط المثقفين

و«العلماء» العرب ولا تكتسي ظاهرة الترحال الثقافي في الفكر العربي المعاصر صورة التراجع أو التوبة وحسب ، بل تتخذ مظهراً آخر قوامه تغيير الاتجاه عند كل لحظة معرفية مما يؤكد أن المشكلة في عمقها ليست مشكلة تقلّب الاختيار على الصعيد الأيديولوجي ، وإنما هي أساساً مشكلة انعدام الاستقرار الابستمولوجي (المعرفي) ذلك أن الحقيقة لدى كثير من المثقفين والقرّاء العرب ، وكثير من الباحثين ، والكتاب هي ، ما يقوله آخر كتاب قرأوه ، وربما آخر حديث استمعوا له ، وهو يدل على رسوخ الاستعداد للتلقي وغياب الروح النقدية في نشاط العقل العربي المعاصر ، هذا العقل الذي يتقبل المشاهد البصرية التي تترى أمام ناظريه مشكلة عالماً خاصاً يفتقد إلى البعد الثالث[53]» .

كذلك يقول «الجابري» في موضع آخر من كتابه بأن التناقض الوجداني هذا : هو من سلبيات العقل العربي ، أو بالأحرى هو ما رآه «حافظ الجمالي» في صدد تعليقه على كتاب «الجابري» المذكور ، فالمثقّف العربي ينتقل من المعقول إلى اللا معقول ولا يثبت عند مبدأ معرفي معين (أو اثبات معين على حد تعبيرنا) أو يلتزم بخط فكري خاص به يطوره ويصل به إلى نهاية الطريق ، وهو أي المثقف لا يزيد عن أن يكرر نفسه (لعدم قدرته على تطوير أفكاره) ويعيش في الحاضر قضايا الماضي [54] .

وجهة نظر الباحث :

التناقض الوجداني له أسبابه الذاتية والموضوعية ، ولا يختلف اثنان في مجتمعنا العربي على أن التناقض هذا مشكلة قائمة ، وقد رأينا عبر الصفحات السابقة عرضاً للمشكلة وتغيرات مدرسة التحليل النفسي ، ثم وُجهات نظر بعض الدارسين العرب والمسلمين لهذه المسألة ، ولكن يبدو أن التفسيرات التي عرضناها كانت عامّة وسطحيّة بعض الشيء ، وقد يكون التفسير الاسلامي لدى «حسن حنفي» عاقداً صلة بين هذا الموضوع والازدواجية الدينية ، أقرب إلى واقع المسألة ، إلا أنها أي

المسألة تبقى أبعد غوراً ، وأبعدُ من أن يكون لها سبب واحد أو علّة واحدة مُفسّرة لها ، وهي أعمق من أن تكون فهلوية كما ذهب إلى ذلك «حامد عمار» أو ترحالاً ثقافياً كما ذهب إليه «محمد عابد الجابري» .

إن التناقض الوجداني ظاهرة إنسانية عامة ، فقد نظر إليها «فرويد» خارج نطاق شخصية قومية محددة ،ولكن رغم هذا تظل نظرية «فرويد» في هذا الشأن قاصرة ، بعيدة عن استيعاب الأسباب الخاصة والعامة لظاهرة لها بعض الخصوصية . ربما كان «فرويد» مصيباً في رأينا في الذهاب إلى مرحلة الطفولة لدى الفرد وما تتميز به من صراعات انفعالية ، وتذبذبات وجدانية متعارضة ومتنافرة يقودها مبدأ اللذة والألم ولكن التناقض الوجداني ، كموقف ، يَظهر أيضاً في مرحلة الرشد (والوعي) عند الفرد ويتكرر ويصبح سمة تطغى على حياة الفرد العاطفية والفكرية ، وتطغى على السلوك الفردي والاجتماعي ، وكما هو الوضع لدى الشعوب التي تتصف بالعصبيّة الشديدة كما ألمح «فرويد» ذاته ، وكما نعتقد أن الشخصية العربية الاسلامية يمسها هذا الجانب ، وإضافة لكل هذا ، فهذه الشخصية التي تتصف بالتناقض المذكور هي أمر يتجاوز تحليل «فرويد» لنوازع الطفولة ، إنه وضع معقّد ساهمت في تشكيله أسباب أيضاً بدورها شائكة معقدة ، ومتعددة تحتاج إلى شرح وتفسير ولكن تصنيفها بشكل عام إلى أسباب ، ذاتية خاصة بالشخصية العربية الاسلامية نفسها ، واسباب موضوعية عامة جاءت لتعقيد المسألة ، وهي أسباب تعود إلى وضعية العالم المعاصر ، وانعكاسات تناقضاته على الشخصية العربية والتي تلقتها كما تلقت أية بضاعة أخرى وبكلمة ثانية تتلخص الأسباب الذاتية في :

1 ـ نمط التربية الأسرية والبيت ـ المدرسة ـ أسلوب التعليم والتلقي ـ فقدان الروح الانتقادية وغياب التربية الفكرية ، وفقدان كل منحى من مناحي الحياة إلى فلسفة خاصة به .

2 ـ الحياة الثقافية القائمة في الوطن العربي ، حيث تطغى عليها الثقافة الأدبية من

قصة ،وشعر ، ونثر إنشائي ، وخطابة انفعالية ارتجالية . . . . الخ .

3 ـ الثقافة السياسية ، أو واقع الأنظمة السياسية القائمة على اللا شرعية ، وطبيعة أساليبها القمعية العميقة ، وفقدان الحرية الشخصية وحقوق المواطنة ، أو غياب أدنى حد من الديمقراطية الحقيقية وما يتبع كل هذا من ثقافة إعلامية موجهة من قبل السلطات الشمولية والتبريرية(*) وكذلك خطب السياسيين المتناقضة والمتهافتة فكرياً ، وما تعنيه من عدم وضوح وما تفقده من منهجية ، وترتيب للأفكار ، أو أنها فاقدة لأي أسلوب مقنع .

4 ـ فوضى الحياة اليومية في المواصلات ، وفي المعاملات العامة ، والأنظمة البيروقراطية الجامدة .

5 ـ الفوضى في هندسة البناء العمراني والعشوائي والتناقض بين حياة الريف والمدينة .

أما الأسباب الموضوعية فهي :

1 ـ الحالة الاستعمارية التي سادت في البلاد العربية الاسلامية والتي سبقتها حالة الانهيار الحضاري للعالم العربي الاسلامي ، وما خلفته (أي الحالة الاستعمارية) من مشكلات على صعيد الفرد والجماعة .

2 ـ وضع العالم المعاصر ، والتناقضات الصارخة القائمة فيه[55] والصراعات الايديولوجية والحروب الباردة والساخنة .(**)

---

*) نقصد بالأنظمة ذات النظام الشمولي والأيديولوجي TOTALITAIRE والحزب الواحد أو القبيلة الواحدة ، فالعشيرة ، أو مجموعة قبائل وأسر ، أو ذات الشكل الديمقراطي الكاذب ، والفردي أو الملكي المنصّب .

**) شهد عام (1989) انهيار جميع أنظمة الدول الشرقية ذات الأيديولوجية الماركسية اللينينية ودخلت هذه الدول مع الاتحاد السوفيتي مرحلة جديدة في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ودخل العالم كذلك بما يسمى بالنظام العالمي الجديد تنفرد فيه الولايات المتحدة الأمريكية بالتأثير ، وأصبح العالم وحيد الجانب وذا بعدٍ عقلي واحد .

لا تعيش الشخصية العربية الاسلامية بمعزل عن هذا الواقع العالمي ، فهو ينعكس عليها سلباً نظراً لعدم استطاعتها مقاومته عقلاً كذلك لم يكن لها الامكانات العقلية لاستيعابه ، واحتواء مشكلاته ، وانعكاساته ومن ثم تتجاوزه ، ولم يكن لها ايضاً الأسلوب العقلاني للتعامل معه ، فقد وقعت فريسة لشراسته ، وتتلقى وجدانياً تناقضاته ، لتتراكم وتناقضاتها الوجدانية الكائنة مسبقاً ، وربما كان تعويل هذه الشخصية على الوجدان مستلهمة التراث الوجداني الماضي هو ما جعلها ارضية خصبة لتطور هذا التناقض الوجداني .

مضاعفات التناقض الوجداني في الشخصية وسلبياته المدمرة :

نستعير في هذا القسم الأخير من البحث النتائج التي وضعها «محمد أحمد اسماعيل» في مقاله : (المثقفون العرب والتنمية الذاتية) ، بعد أن تأملناه طويلاً ووجدنا أنها تتفق مع ما يريد هذا البحث إظهاره من نتائج عامة لظاهرة التناقض الوجداني ، وأجرينا بعض التعديلات في المضمون وأضفنا عناصر أخرى ،وحاصل الأمر أن الازدواجية الوجدانية تتضمن ما يلي أو تؤدي إلى :

1 ـ الاستهتار بالهوية الذاتية والقومية :

يتهاوى الفرد أو تتهاوى المجموعات والسلطة السياسية في مساقط الاستهتار القومي عندما يسودها الموقف الوجداني المتذبذب والذي يتناوبه الاقدام والاحجام عندما يعني الأمر اتخاذ قرار ويصيبها الوهن في الارادة والعزيمة ، ويعلوها فساد في الرأي كما قال «المتنبي» لأن اتخاذ القرار وحسم الأمور يتطلبان إرادة إيجابية .

2 ـ التضحية بالحقيقة أو خيانتها ، أو المساومة عليها من أجل السلطة :

إن صاحب الموقف المتناقض الوجداني يمكنه أن يساوم على الحقيقة ، ويمكنه أن يخونها أو يضحي بها إذا واجهته السلطة مهما تكن طبيعتها : سياسية أم اجتماعية أم فكرية ، وقد يكون سرد الأمر كله تفصيل المصلحة الشخصية ، والدخول في معارك وصراعات دموية من أجلها فقط .

3 ـ التضحية بالمبدأ والقناعات الفكرية في سبيل المال وفي سبيل المتع الرخيصة ولذائذ الحياة لا شك أن المال وسيلة لاستمرارية العيش ، ودوام الحياة ، وتحقيق الأمن والرخاء ، ولكن يمكن أن يقع صاحب الموقف الوجداني المتناقض فريسة تحصيل هذه الوسيلة مضحياً بالمبدأ وبالموقف ، وبالقناعات الذاتية ، ويستخدم المال في زرع الشر وتحقيق الرذائل .

4 ـ الافتقار إلى الشجاعة ، وعدم الاستعداد للتضحية في سبيل قيم الحق والعدالة والحرية والانتماء للوطن يقول «اسماعيل علي» إن الرواد في الفترة الليبيرالية المصرية أمثال «طه حسين» و«محمد حسين هيكل» و«عباس محمود العقاد» كانوا خلال الثلاثينيات من هذه القرن في حالة تراجع فعلي سريع عن مواقفهم السابقة المتعلقة بالعلمانية الليبيرالية وتبني الثقافة الأوروبية ، فقد بدأ هؤلاء الشباب حياتهم الفكرية وهم يتمنون أن يكونوا طليعة فكر علماني ، وقد تمثل بشكل بارز عند «طه حسين» في كتابه (في الشعر الجاهلي) و(علي عبد الرازق) في كتابه (الاسلام وأصول الحكم) لكنهم لم يصمدوا أمام مقاومة القوى التقليدية المحافظة ، بل تراجعوا عن مواصلة طريقهم[56] ونضيف أنهم ربما عاشوا طوال حياتهم الوجدانية ظاهراً يناقض الباطن ، ولم يقنعوا بأن الدفاع عن القناعات الفكرية يتطلب شجاعة عقلية ، واعتبار أن موت الانسان في سبيل أفكاره ومبادئه خير له من أن يضعف ، وينحني ويلقي سلاحه ، أو تغيير موقعه لمتابعة المعركة في سبيل الحفاظ على أمنه وخلاصة الفردي إزاء الطغيان .

5 ـ الافتقار إلى الوضوح :

يقول «أحمد اسماعيل» أيضاً : «خلال الفترة الليبيرالية ، وُجد الكثير من المثقفين الذين كانوا يتسمون بالكذب والرياء والتلوّن ، وفقاً لكل ريح سائدة ، وبهذا الصدد فقد رأى أحد الباحثين أن أحد مظاهر أزمة الفكر العربي بصفة عامة تتمثل في فقدان الجرأة والحرية الفكرية ونقد الذات ، وعدم تكامل الاحساس بالمسؤولية

الجماعية ، ويقول «فتحي رضوان» لقد كتبوا(*) في الفكر الغربي ثم كتبوا عن الاسلام ، فما من شيء في حياتهم تغير بتغيير الموضوع»[57] .

وقد يأتي عدم الوضوح من الافتقار إلى الشجاعة والمواجهة والجهر بالقناعات الخاصة لم تكن مواقف هؤلاء واضحة إزاء الموضوعات المتنافرة التي كانوا يعيشونها في كتاباتهم .(**)

6 ـ الافتقار إلى الاخلاص :

ويقول «فتحي رضوان» : كان مثقفو الفترة الليبيرالية يفتقرون إلى حد معين من الاخلاص اللازم للقيام بوظيفتهم كمثقفين[58] أي تقديم أنفسهم كقدوة للالتزام بالمبدأ والموقف والمواجهة والصراع في سبيلها .

* * *

---

*) يقصد «رضوان» رواد الحركة الفكرية الليبيرالية الذين سبق ذكرهم منذ قليل .

*) يعوز كل من الباحثين : «اسماعيل علي» و«فتحي رضوان» بعض الشواهد والنصوص لدعم آرائهم حول الرواد الذين تحدثوا عنهم .

خلاصة ونتيجة عامة:

إذا كانت الحياة الانسانية مصنوعة من المتناقضات ، والمتنافرات ، فلا يعني ذلك أن الحياة مادة خام ـ تحيط بالانسان تصنعه ، تصوغه ، بل العكس هو الصحيح ، فالانسان رغم عيشه في خضم المتناقضات الوجدانية ، والعقلية ، إلا أنه متميز بالعقل (أعدلُ قسمة بين الناس) كما قال «ديكارت» وله ميزة الوعي القائم على تجسيد هذه المتناقضات رغم حدتها على صعيد الحياة الوجدانية الانفعالية ، وذلك لصالح قَيَم العقل أي : التناقض الجدلي العقلي ، ولا شك أن المعقول له جاذبية في ندائه للعقل وللفهم ، وكما ظهر من خلال هذه الصفحات أن التناقض الوجداني مشكلة عويصة تكاد تطغى على مجمل حياة الشخصية العربية ، فلقد بَدَتْ هذه الشخصية في لحظة ما ، جامعة غريبة للتناقضات ، عاجزة فعلاً عن خلق منظور منسجم إزاء الحياة والعالم غير واعية لما تتخبّط فيه من متناقضات يستحيل التأليف بينها ، والعيش في خضمها أو صهرها في قالب تناقضي عميق ، أي تناقض عقلي ، أو على مستوى العقل وجدلياته من : إثبات ، ونفي وتجاوز لهما ، نحو إثبات محدد ، أو نفي محدد قائم هذا أو ذاك على البرهان .

لقد بدت هذه الشخصية مهزوزة ، متأرجحة ، تتناولها الانفعالات المباشرة والمتناقضة على صعيد الحياة اليومية ،وعلى صعيد المعرفة ، وكانت سبباً لهزيمتها أمام العصر .

لقد امتثلت هذه الشخصية لواقع عربي مهترىء ، أو ساهمت في خلقه ، وصنعه ، فلم تعد تصلح هذه الشخصية إلا لهذا الواقع ، ولم يعد يصلح هذا الواقع إلا لها .

لقد أصبحت الشخصية العربية ـ الاسلامية ، بتناقضاتها في عيون (الآخر) حالة خاصة تسترعي الاهتمام والدراسة ، أو مشكلة مستعصية على الحل ، أو عالماً شرقياً معقّداً أو شخصية هشّة تعيش على وتر مشدود بين انفعالين طاغيين هما بدورهما هشّان وأصبحت بكلمة مختصرة شخصية مُختَرَقة من قبل (الآخر) .

ترتد هذه الشخصية مدافعة عن وجودها الحاضر بما فيها ، مستهلكة انتصارات الماضي أو حضارة الغرب ، وتقدّم الشرق ولا يعنيها المستقبل إلا من زاوية الموت واليوم الأخير .

لقد ألمح بعض القدماء إلى هذه الظاهرة في بعض كتاباتهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى تحليل أسبابها شأواً بعيداً ، ولقد كان كثير من الشعراء العرب ، والمتأدبين يكسبون من شعرهم ، وقالوا المديح وقالوا الهجاء ، ولقد ساهم في تغذية هذا الجانب المضطرب في الشخصية أي تناقضاتها الوجدانية إرث ثقافي ، ورأينا شخصيات ، هي في موضع اعتبار الجمهور وقد وقعت فريسة هذا الواقع الوجداني ،وامتد هذا الإرث ليشمل الوجدان الشعبي ، فكانت الطامة الكبرى فعظمت المشكلة ، وتفاقمت .

ولقد ألقى التحليل النفسي الضوء على التناقض الوجداني على صعيد الفرد ، وافترض وجود التناقض الوجداني في الشخصية الانسانية في عهدها الطفلي ، وكان افتراضه هذا لا يخلو من جاذبية ولكنّه كأي افتراض علميّ لم يخضع بذاته للتجربة ليصبح يقيناً علمياً صارماً .

وطرح بعض الباحثين العرب ، كما رأينا مشكلة التناقض الوجداني في ثنايا بحوثهم ، كما أن بعض المستشرقين (الفرنسيين) كـ«جان بول شارني» و«جاك بيرك» قد تناول هذه المسألة ولكن كانت بحوثهم تمس القطاع الثقافي وخاصة اللغوي في الثقافة العربية الاسلامية الاتباعية (الكلاسيكية)[59] .

بقي سؤال يطرحه كاتب هذه السطور وهو : هل يمكن للتناقض الوجداني ، وكما طُرح في الصفحات السابقة أن يقيم نظرية في العالم والوجود الانساني؟

لا يؤسس هذا الجانب من الشخصية العربية ـ الاسلامية أو غيرها من الشخصيات الانسانية نظرية في الوجود ، ولا العالم ، ولا الانسان ، ولا يمكن إرجاع هذه العوالم إلى تناقضات الوجدان الانساني ، إننا نميل إلى تغليب المعقول على اللا معقول ، والعقل على الوجدان .

ونظن أن حالة الوجدان وتناقضاته لا تزال تسود عقلية الجماهير العربية بغالبيتها المطلقة ولا تزال تسود عقلية المثقفين والباحثين والدارسين ، والعلماء العرب بغالبيتهم المطلقة .

ونعتقد أن استمرار هذه السيادة للجانب التناقضي الوجداني على حساب العقل وفعاليته ونشاطه ، سيؤدي إلى تدمير هذه الشخصية ولا مفر من الدمار إلاّ بتحكيم العقل ، واللجوء إلى المعقول ، وتجاوز الانفعال والشعور المحض والوجدان ، إلى مستوى العقل الذي لا يخامره الوجدان وانفعالاته إلا فيما نَدَر .

ولا يفوت الباحث أن يذكر الاتجاه التبجيلي الوجداني الذي ظهر في الستينات من هذا القرن عبر الحديث عن العاطفة الانسانية ومكانتها ، والقلب وأحاسيسه ، والنزعات الرومانسية والتي تحيط بها هالة روحية صوفية ، كما عبر عنه «عثمان أمين» لقد أوردنا مقالته في القسم الثاني من هذا البحث .

يرى البعض أن التناقض الوجداني تعبير عن التمييز الحادّ بين الحياة الداخلية والحياة الخارجية ، التي يتصف بها الشرق عموماً ، بما فيه المجتمعات العربية ـ الاسلامية ، بينما لا نصادف هذا التمييز في المجتمعات الغربية المعاصرة خاصة ، وبتعبير أوضح لم تعد المحرّمات والممنوعات ، وأشكال (التابو) الأخلاقية الاجتماعية مصدر تناقض وجداني ، ولم تعد تقع في دائرة الممارسات (الخلقية) أو ممارسات سرية ـ كتمانية ، وداخلية والتظاهر بالنقاء والصفاء في الحياة الخارجية .

فلقد تجاوزت هذه المجتمعات الموقف المزدوج(*) وضيقت دائرة المحرمات ، فأصبح الداخل خارجاً ، وقضى على مصدر التناقض الوجداني لحساب الجانب العقلي .

---

*) هذا لا يخفي المواقف السياسية المزدوجة التي تقفها بعض الدول الغربية من قضايا الساعة ولكن هذه مسألة أخرى ، وتُمارس بعد دراسة وتوجيه عقلي واع لهذا الفعل الازدواجي . .

وخلاصة الموضوع : أن الشخصية العربية الاسلامية في تناقضاتها الوجدانية المعاصرة هي أمام احتمالين إما :

1 ـ أن يطغى التناقض الوجداني على كامل الشخصية ، وخاصة الوجدان الجمعي ، وتطغى أيضاً رداءة الزمن العربي ، ولا تزال تغذي هذا الجانب الأزمات الاقتصادية والسياسية وحركات التطرّف ، وبتعبير آخر رداءة الحياة العربية بكل جوانبها التي تقاوم التقدم والتغيير والنتيجة ـ انهيار هذه الشخصية ودمارها الكامل ، واندثار معالم تاريخها الماضي والحاضر فيقفل التاريخ أبوابه أمامها إلى زمن غير محدود منفتح نحو الأبدية .

2 ـ أو يطغى جانب التقدّم العقلي في الاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والتعليم ، والثقافة والعلم والتكنولوجيا ،ويسود أو يَغْلب التفكير العقلي ،وتخف وطأة الشعور الانفعالي وتواجه الشخصية العربية ذاتها والعالم بعقلها وبمعقوليتها .

ونحن نميل إلى الجانب المتفائل ميلاً لا يخلو من حذر[65] .

5) الوجد ، اليسار ، انظر د . محمد محمد حسين ، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ـ دار النهضة العربية ، بلا تاريخ ص 134 .
6) المصدر السابق ص 128 .
7) إيليا حاوي في النقد والأدب ، الجزء الثاني ـ دار الكاتب اللبناني ط 4 1979 ص 165 .
8) د . بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمن) الشخصية الاسلامية ـ دراسة قرآنية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1986 ص 4 .

9) د . محمد محمد حسين ـ مصدر سابق مذكور ص 130 .
10) إيليا حاوي ـ مصدر مذكور ج1 ص 39 ، 40
11) عباس محمود العقاد ـ عيد العلم ـ ص 70 نقلاً عن ، محمد أحمد اسماعيل في : المثقفون العرب والتنمية ـ مجلة الوحدة العدد 66 مارس 1990 ص 114 وما بعد .

12) م . س نفس الصفحة .
13) م . س نفس الصفحة .
14) م . س نفس الصفحة .
15) طارق البشري ، الحركة السياسية في مصر (1945 ـ 1952) الهيئة المصرية للكتاب القاهرة 1972 ص 372 عن المصدر المذكور أعلاه ص 117 .
16) فتحي رضوان ـ عصر ورجال ، مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة 1967 ، نقلاً عن المصدر السابق ص 118 وبالنسبة لحافظ ابراهيم ـ انظر د . عمر دسوقي ـ في الأدب الحديث دار الفكر العربي ط7 مصر ص 103 .
17) فتحي رضوان ـ المصدر السابق ، وبالنسبة للشاعر أحمد شوقي ـ انظر د . عمر دسوقي المصدر السابق .

18) د . زكي نجيب محمود تجديد الفكر العربي ـ دار الشروق ـ بيروت 1971 ص 5 ، 6 نقلاً عن د . كمال عبد اللطيف ـ طبيعة الحضور الفلسفي الغربي في الفكر العربي المعاصر (ندوة الفلسفة في الوطن العربي المعاصر) ـ نشر مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1985 ص 211 .

19) د . أحمد ماضي ـ الوضعية المحدثة والتحليل المنطقي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر المصدر السابق ص 171 ، 172 ، وانظر كذلك د . زكي نجيب محمود حصاد السنين في : إرادة التغيير ، جريدة الأهرام المصرية والاتحاد الظبيانية 1990/2/6 . الواقع ، لم يتخل الدكتور زكي نجيب محمود عن موقفه بالاشادة بدور العقل ، فقد تحدث عن خرافية العقل العربي المتمثلة لدى الدارسين العلميين العرب الذين يعيشون ازدواجية في وجدانهم (وبالتالي في عقولهم ويبررونه بعقلهم (العلمي) ـ هذه العبارة الأخيرة من وضع كاتب هذه السطور) وعقلهم بين ما درسوه من طريقة علمية في البحث وبين عبث الطفل الذي يظهر في تفكيرهم بعد مغادرة المخابر العلمية والمحاضرات العلمية ، انظر تجديد الفكر العربي ، ص 282 .

ويأسف الدكتور إلى أن الدعوة إلى العقل الصرف لا تجد في أنفسنا صدىً ، انظر د . أحمد ماضي الفلسفة في الوطن العربي المعاصر مصدر مذكور ص 171 ، 172 . إن عبارة (العقل الصرف) تعيد إلى الذاكرة عبارة «كانت» (العقل المحض) في كتابه نقد العقل المحض ونقد العقل العملي ، ونتساءل هل يقصد زكي نجيب محمود بالدعوة إلى العقل الصرف ما يقصده الفيلسوف الألماني كانت KANT وهل تتفق هذه الدعوة مع حديث د . زكي عن المنطق الوضعي والفلسفة الوصفية المنطقية ومبدأ التحقق والتجريب .

ومن ناحية ثانية ـ هل يمكن العيش حسب نمط عقل صرف؟؟
نحن ندعو إلى عقل يمر بحالة وجدانية ويتجاوزها ، أو عقل يحتوي التناقض الوجداني ويدير صراعاته ، أو عقل يقود العربة .

20) د . محمد عابد الجابري الخطاب العربي المعاصر ـ دار الطليعة بيروت ط3 1988 ص 164 ، 165
21) المصدر السابق صفحات : 164 ، 165 ، 166 وجاء في هذا المصدر ما يلي : معروف أن صاحب الفلسفة الجوانية قد خاض معركة كلامية مع صاحب الفلسفة البرانية داعية الوضعية المنطقية سابقاً زكي نجيب محمود ، انظر م . س ص 166 .

22) لقد حددنا لأنفسنا في هذا البحث بأخذ (عيّنة) من الشخصية العربية المعاصرة بتناولنا خاصة جانبها المصري ، ولا يغيب عنا اعتبار أن هذا الأمر ينسحب على الشخصية العربية المعاصرة في تجلياتها الشامية ، والعراقية ، والشمال افريقية والسودانية ، والجزير العربية ولكن تعوزنا المراجع العلمية حالياً بشأن دعم هذا البحث وتعميم المسألة على كامل التجليات المذكورة .

هذا ، ويذكر الجابري ، في كتابه المذكور : «إن من خصائص الخطاب العربي الفلسفي المعاصر للشخصية العربية أي جانبها الوجداني» : ما وضعه الأستاذ/ زكي الأرسوزي من فلسفة سمّاها (الرحمانية) القائمة على مستوى الشعور أو الوجدان والثاوية في أعماق اللغة العربية» انظر عناصر هذه الفلسفة في المصدر المذكور ص 167 ، 168 ، 169 ، ولا تخلو فلسفة الأرسوزي من شطحات روحية ، وصوفية وتهويمات تخلط بين مصطلحات الفلسفة والسياسة واللغة .

23) د . مصطفى محمود ، لماذا رفضتُ الماركسية القاهرة 1975 ص 7 ، 28 .
24) م . س ص 7 ، 28 .
25) م . س نفس الصفحات .
26) فاروق خورشيد ، هموم كاتب العصر ـ دار الشروق ـ بيروت 1981 ص 231 .
27) م . س ص 226 ، لقد عالج الدكتور محمد عابد الجابري نمطاً من الازدواجية الثقافية أو الفكرية ، انعكست في الاشكالية : الأصالة/ المعاصرة ، والموقف إزاء الغرب ، وقد طرح السؤال التالي : لماذا تأخرنا ، وتقدم غيرنا؟ ومن خلال الاجابة على هذا السؤال تمت معالجة الازدواجية المذكورة ، انظر عرض وتحليل لكتاب الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر في مجلة شؤون اجتماعية (الشارقة) العدد 25 ربيع 1990 ص 250 ، ويقول الجابري : أن المشكلة ليست في اختيار أحد هذين النموذجين : العربي أو الأوروبي ، ولا التوفيق بينهما ، بل إنما تكمن في الازدواجية التي تمس كافة مرافق ومناحي حياتنا المادية والفكرية والسلوكية انظر المصدر السابق (مجلة شؤون اجتماعية ص 250 ، 252 ، 254 .

28) فاروق خورشيد ، مصدر مذكور ص 241 ، 245 .

29) د . عاطف وصفي ، فصل : (أبعاد الشخصية المصرية التقليدية) في كتاب : الثقافة والشخصية دار النهضة ـ بيروت 1981 ، ص 246 وما بعد .

30) المعجم الوسيط ، وضع مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ج2/ 1960 ص 24 .

31) نُشر كتاب الأضداد للانباري في دمشق 1964 ، ولقد وقفنا على أربعة كتب في الأضداد لكل من : الأصمعي ، والسجستاني ، وابن السكّيت ، والصنعاني ، وقد نشرت كلها في طبعة قديمة ، هوفير 1913 ـ بيروت ونشرت حديثاً ، بلا تاريخ بعنوان ثلاثة كتب في الأضداد ـ دار الكتب العلمية .

32) انظر ، AMBIVALENCE في معجم المنهل ، فرنسي عربي ، د . جبور عبد النور ود . سهيل ادريس ط8 بيروت 1985 .

33) د . عبد المنعم الحفني ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، مكتبة مدبولي القاهرة .

34) وانظر كذلك د . وليم الخولي ، الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي دار المعارف ـ مصر 1976 مادة AMBIVALENCE وكذلك :

AMBIVALENCE: A S HORNBY, OXFORD. S. DICTIONARY. CURRENT, E. ED OX.1

35) د . وليم الخولي ـ مصدر مذكور ص 30 .

36) جان لا بلانش ـ ج ، ب ، بونتاليس ، معجم مصطلحات التحليل النفسي ، ترجمة مصطفى حجازي ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت 1985 مادة : AMBIVALENCE.

37) المصدر السابق ص 57 ، 58 ، 156 .

38) HUMBERTO, NAGERA,: BASIC PSYCHOANALYTIC CONCEPT ON METAPSYCHOLOGY CONFLICTS ANXIETY. LONDON GEORGE-ALLEN AND UNWIN. T. 1970. P.130.

39) IBID.P.132

40) س . فرويد ، الأنا والهو ، ترجمة الدكتور عثمان نجاتي ـ دار الشروق ـ بيروت ط4 1982 ص 53 ، 54 وعن GROUPPSYCHOLOGY AND THE ANALYSIS OF THE EGO, IN COLLECDED PAPERS. VOL.2.

وانظر كذلك ، BASIC, IBID P. 131 ويقسّم صاحب كتاب تاريخ الفلسفة (فصل علم النفس) بالفرنسية في حديثه عن (فرويد) إن هذا الأخير يرى توزع حياة الطفل إلى المراحل التالية :

1 ـ المرحلة الفمية : من الولادة حتى نهاية السنة الأولى ، وتسودها ظاهرة النرجسية والتناقض الوجداني .
2 ـ المرحلة الثانية : التعلق بالأم ، وصراعه ضدها (السنة الثانية) .
3 ـ المرحلة الثالثة : من نهاية السة الثانية إلى الثالثة ، ظهور العاطفة الليبيدية .
4 ـ المرحلة الرابعة : من السنة الثالثة إلى نهاية السنة الرابعة ـ مبدأ اللذة وعقدة أوديب .
5 ـ المرحلة الخامسة : إدراك الطفل المحرّمات في السنة الخامسة ، وما بعد انظر :
T. ORIOL HISTOIRE DE LA PHILOSOPHIE, CHA. S.FREUD ED. F NATHAN. 1979 P. 124-25

41) س . فرويد أفكار لأزمنة الحرب والموت وترجمة سمير كرم ط دار الطليعة بيروت 1985 ص 17 ، يرى فرويد أن قانون التناقض الوجداني يحكم علاقاتنا العاطفية .
انظر المصدر السابق ص 32 وكذلك انظر علاقة هذا القانون بالاكتئاب DEPRESSINO انظر المصدر السابق ولوم الذات لفقدان الموضوع المحبوب ، المصدر السابق ص 77

42) انظر : BASIC, IBID, P.132
43) س . فرويد التوتم والتابو والترجمة العربية : دار الحوار ـ اللادقية سورية 1983 ص 48 ، 50 .
44) المصدر السابق ص 90 ، 91 .
45) المصدر السابق ص 91 .
46) د . يوسف مراد ، مبادىء علم النفس العام ، دار المعارف بمصر ط6 1969 ص 172 وانظر كذلك موسوعة علم النفس إعداد د . أسعد رزق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط2 .
يقول (فرويد) تبين الملاحظة السريرية الآن أن الحب يكون دائماً مصحوباً بالكره (التناقض الوجداني) بشكل لم يكن متوقعاً ، وأن الكره غالباً ما يكون مقدّمة للحب في العلاقات

الانسانية ، ولا تبين الملاحظة السريرية هذا فحسب ، بل إنها تبين كذلك أنه كثيراً ما يتحول الكره إلى حب ، والحب إلى كره .

انظر س . فرويد ، الأنا ترجمة د . عثمان نجاتي مصدر مذكور ص 70 .

47) جوردن اولبورت ، الشخص في علم النفس ، دراسة في كتاب علم النفس الانساني مكتبة الانجلو المصرية 1977 ص 62 .

HUMANISTIC VIOW POINTS IN PSYCHOLOGY.F.T.S EVRIN, 1965. NEW-YORK.

48) د . حامد عمار في (بناء البشر) ، دراسات في التغير الحضاري والفكر التربوي منشورات سرس الليان 1964 ، من صفحة 79 : 90 عن د . عاطف وصفي ، الثقافة والشخصية مصدر مذكور ص 248 لقد ناقش الدكتور (عاطف) رأي الدكتور عمار ـ حول المحددات الست لظاهرة (الفهلوية) التي تفسر الشخصية الازدواجية قائلاً : إن هذا التصور الذي وضعه الدكتور عمّار لا يخرج عن كونه (فرضاً يحتاج إلى مزيد من المناقشة واستكمال الأدلة التي تثبته أو تدحضه ، وأعتقد شخصياً أن الشخصية الفهلوية تنتشر في الطبقة الوسطى من سكان المدن بصورة أقوى من انتشارها في طبقة الفلاحين التي يؤيدها الدكتور (عمار) ومما يؤيد ذلك أن الدكتور (فؤاد مرسي) قد حدد ملامح الطبقة البرجوازية الصغيرة بأنها تتصف بالتردد والتقلب وضيق الأفق والهرب من الواقع ، انظر د . عاطف وصفي المصدر المذكور ص 247 .

49) د . جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة في عمق عبقرية المكان ـ كتاب الهلال 1967 ص 58 عن د . عاطف وصفي م . سابق ص 249 .

50) د . حسن حنفي ، التفكير الديني وازدواجية الشخصية ، مجلة الفكر المعاصر ابريل 1969 ص 58 نقلاً عن د . (عاطف وصفي) م . مذكور ص 247 .

51) د . زكي نجيب محمود ، في حياتنا العقلية دار الشروق ـ بيروت 1981 ص 172 . يبدو أن الدكتور (زكي) يركن إلى هذه الازدواجية ويراها من طبيعة الأمور يقول : «نعم إنها سنة الحياة أن يبطىء التغيير الخلقي بحيث لا يلحق بالتغير المادي إلا بعد زمن طويل ، فواجبنا أن نستحث الخطى لنسرع نحو التئام الفجوة بين داخل الانسان وخارجه .» انظر

المصدر المذكور ، نفس الصفحة .

52) يرى الأستاذ فاروق خورشيد أن الأديان السماوية ، وعلى الأخص الاسلام كان رسالة الهداية لتقود الانسان ليخرج من هذا التناقض وتلك الازدواجية على مهاد وحي سليم وعلى أسس واقعية حقيقية والاسلام يحفظ توازن الفرد ويقيه شر التناقضات .

انظر المصدر السابق ص 240 ، 242 (هموم كاتب العصر) يلتقي الأستاذ خورشيد بفكر الدكتورة (بنت الشاطىء) وهما يدخلان معاً في إطار التيار الاسلامي .

53) د . محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ط3 بيروت 1988 ص 45 ومن الجدير بالذكر أن الدكتور (الجابري) يربط بين معنى الوجدان ومعنى العقل في اللغة العربية ، وبالتالي السلوك إذ يرى أن العقل العربي في بعض جوانبه (حالة وجدانية) وهو يرجع إلى دلالة العقل في كبريات المعاجم العربية المعروفة .

انظر د . الجابري ، تكوين العقل العربي ، الصفحة نفسها راجع هامش (20) .

54) حافظ الجمالي ، ملامح الحداثة في الفكر العربي ، مجلة الوحدة العدد (60) ص 125 .

55) د . عبد المعطي سويد ، مقال على هامش تناقضات العالم الراهن ، جريدة الاتحاد الملحق الثقافي 1989/1/29م .

56) محمد أحمد اسماعيل ، في مقاله المثقفون العرب ، والتنمية الذاتية في مجلة الوحدة عدد 66 مارس 1990م .

57) المصدر السابق ص 121 كذلك اسحق موسى الحسيني ، أزمة الفكر العربي - بيروت 1954 ص 18 .

58) المصدر السابق ، المثقفون العرب ص 122 ، 132 .

59) عنوان الكتاب بالفرنسية : J.P. CHARNY ET. J. BERQUE, L'AMBIVALENCE DANS LA CULTURE ARABE, PARIS

ليس المرجع بين يدي الباحث ولا يذكر سنة الطبع ولا دار النشر .

60) لاستكمال موضوع التناقض الوجداني في مختلف جوانبه لا بأس بأن يلحظ القارىء علاقة

هذه الظاهرة بكل من :-

- العلم : الذات/ الموضوع .
- تكنولوجيا : الانسان/ الآلة .
- الفلسفة : الانسان/ العالم ، الوجود/ العدم ، الروح/ الجسد ، الخير/ الشر .
- الدين : انظر مقدمة هذا البحث (الازدواجية الدينية) العقل/ الوحي العقل/ النقل ، الحقيقة/ الشريعة ، الله/ الشيطان .
- الأدب والفن : العمل الفني/ الفنان ، الشاعر/ القصيدة ، الشعر/ الفلسفة .

تمّ في 1990/6/17

فهرس

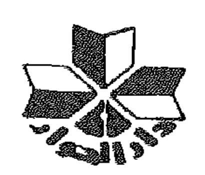
التناقض الوجداني
في الشخصية العربيـــة المعاصــرة

من الصلة الوثيقة للمؤلف بالتراث العربي الاســلامي ، وبالانتاج الفكري والأدبي الحديث ، وعلى هدي من المعطيــات الحديثة في علم النفس ، يحلل في هذا الكتاب الشخصية العربية، وما يعتورها من تناقض في الصميم ، تضاعفه وتديمه الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية ، وتجعل الخيار بالغ القساوة والحساسية والتحديد : فاما الانهيار الذي لا نهوض بعده ـ الا بعد زمن مديد، ان كان من نهوض ثان ـ واما العمل الحثيث من أجل انتصار العقل والحرية ، كي تتعافى الشخصية المعطوبة ٠

والمؤلف باحـث في ادارة المناهـج (وزارة التربيــة ـ الامارات العربية المتحدة) ومدرس سابـق في جامعــة بنغازي (ليبيا) ، وقد صدر له أيضاً عن دار الحوار :

★ التفكير الشعري وازدواجية التعبير :

★ جدلية الوحدانية والاشراك في الفكر العربي الاسلامي ٠



دار الحــوار للنشــر والتــوزيع

اللاذقيـــة ـ ص.ب 1018 ـ هـاتـف 22339 ـ ســوريـــة

مطابع الفـــبا ، الأديب

دمشق ـ هاتف ٢٢١٧١١